هذيان

هذيان

زياد محمد

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2018/26870

I.S.B.N:978- 977-6640-42-9

الطبعة الأولى 2019م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

زياد محمد

هذيان

رواية

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى جدي رحمه الله:

عبد الجواد حسين

أفتقدك كما يفتقد المؤمن ليالي رمضان ورائحتها، أراك دومًا في منامي، وأشتاق إلى رؤيتك في جنة الخلد إن شاء الله..

مقدمة

في غيهب سجن الحُب قلبي سجين، مُحاط بجدار الخذلان، مُقيد بالألم، مُتهم بالإخلاص لمن أحب: نعم في عالم الحُب السجن لمن أخلصوا، العذاب لمن أوفوا بالوعود، الهلاك لمن صانوا، سجن الحُب ليس للمجرمين، المجرمون خارج أسوار السجن: يعيشون حياتهم بضميرٍ ميتٍ، أحرقوا القلوب التي أضاءتهم، هشموا القلوب التي ألصقتهم، أعدموا القلوب التي أنقذتهم من مقصلة الحياة، محترفون في اللامبالاة لنداء من وضعوهم داخل السجن، ولكن يظل الأمل قائمًا دومًا في تحرير المسجونين، ومفتاح القيد في أيدي المجرمين فقط: فإما العودة بنية الاعتدال في الحب والأفعال أهم من النية، وإما الانحراف التام إلى أن يسقط المفتاح منه، وفي تلك الحالة إما أن يكون مصير المسجون السجن الأبدي، وإما أن يجد المفتاح شخص آخر صدفة فيحرره بالحب أيضًا... وأنا ما زلت متعلقة بالأمل الأول رغم المعاناة، ما زلت أرى خياله رغم ظلمة سجني، ما زلت أحلم به رغم أنني في كابوسٍ، ما زلت أستغيث به رغم أنه لا يسمعني، أنا لا أجيد سوى حبه، هوايتي في الحياة هي حبه، ما يؤلمني أنني كرست حياتي من أجله نظير ذلك لم يكترث لي مُطلقًا... اشتهيه حتى إذا شبع هو مني، إنني قررت أن أتعقب فرائض الحب واحتمال كل العقبات، فنهايتي إما أن يرحم بي من أحب، أو أنال العقاب بقية حياتي..

الفصل الأول

ما زلتُ أتذكر ليالينا سويا، أتذكر تفاصيل يومنا، أتذكر تفاصيله هو، شعره الطويل الناعم كملمس جسد امرأة، عينيه العسليتين ويلي إذا سقط عليهما سراج الشمس، ابتسامته البريئة كطفل لم يتخط العامين، ذوقه الرائع في الملبس، خطواته البطيئة نحوي؛ كانت تُربكني، تُربك قلبي، جسدي يرتعش عند اقترابه كاقتراب ورقة الامتحان!

ها أنا مثل العجوز التي تُوفي زوجها أجلسُ مُنتظرة ملك الموت يأتي لينتشل روحي من جسدي، أجلسُ في غُرفتي تُحاوطني الجُدران من كل ناحية، تستمع إلى أنيني، إلى حديثي مع نفسي، إلى استغاثتي به، أسألُ نفسي هل كل هذا الصدع الذي أصاب الجُدران ناتجًا عن حُزني، هل حُزني بذلك التأثير، لم أتمن يومًا أنْ أكون تلك الفتاة البائسة إلى هذا الحد، ولكنني تخطيت كل حدود الحُزن؛ فصنعتُ حدوداً لنفسي لكي يُشبهوا البائسين بي..

هل أنا محور تفكيره، مثلما هو يُسيطر على عقلي، هل يُفكر في تفاصيلي الصغيرة كل يوم، ساعة، دقيقة، ثانية! هل نتشارك آلام البُعاد سويا، هل سقطت جُدران قلبه مثلما سقط قلبي، أم يجلس كعادته لا مُبالياً لشيء سوى سيجارته، كوب قهوته، موسيقى الراب التي يُحبها أكثر من حُبه لنفسه؟!

اسمه ماهر، نعم كان ماهرًا، ماهرًا في ذوبان قلبي كقطعة جليد ذابت فسقطت في المُحيط فكان هو ذلك المُحيط، ماهرًا في إسعادي بكلمة واحدة فقط، ماهرًا أيضًا في جعلي أغار عليه، وماهرًا جدًا أيضًا في إيذائي وابتعاده عني وتركي وحيدة، مُحاطة بصوته ورائحة كتفيه وذكرياتنا وتفاصيله؛ كالآن تمامًا، كنتُ أُناديه في بعض الأحيان بالثعلب؛ حيثُ إنهُ ماهر ومكار مثله وكان يسرهُ ذلك الاسم..

نسيتُ أن أُعرفكم على نفسي، عُذرًا فبمجرد الحديث عنه أنسى كل شيء حقًا؛ اسمي أميرة، أمتلك عشرين عامًا، أدرس في جامعة القاهرة قسم هندسة، نشأت في الإسكندرية ونظرًا لظروف دراستي أسكن في القاهرة الآن في شقة سكنية وحدي بدون أحد، لقد حققت حلم أهلي المُعقدين للغاية وما زلت أبحث عن حلمي أنا، عن حياتي أنا، وما أُريده أنا!

أشتاقُ إلى الإسكندرية كثيرًا، إلى أُمي، أخوتي، أصدقائي هُناك، حتى إلى أبي المُضطهد، إلى الجلوس أمام البحر بعد الثانية عشر ليلًا، صوت فيروز في المقاهي صباحًا، كل ما يتعلق بها أشتاقُ إليه وبلغ حنيني ذروته إلى العودة..

كم مؤلم البُعد للغاية، مؤلمة الغُربة كثيرًا، أجلسُ هُنا ليلًا في غُرفتي أحتسي الكثير من القهوة، أتحدثُ مع جُدران الغُرفة، أحتضنُ نفسي على أمل الشعور بنوعٍ من الدفء ونحت الطمأنينة على جُدران قلبي، وكم من مرة نُحت الحُزن على جُدران قلبي، نُحتت معه الوحدة والألم، الخوف والبؤس..!

منذُ ثلاث سنوات.

بنبرة شوق ولهفة إليه قلتُ:

. ماهر أنا محتاجاك جمبي في كل ثانية بتعدي وأنت ما شاء الله؛ بالعكس بتبعد عني أكتر وأكتر، ليه يا ماهر؟

. غصب عني يا أميرة والله!

كنتُ أعلم جوابه المُعتاد فهي حجته التي يفر إليها دائمًا كُلما طرحت ذلك السؤال عليه فلا جديد يُذكر، ثُم قلتُ:

. عارفة أنك هتقول كدا؛ غصب عني وبشتغل وبتعب وأنا مقدرة تعبك بس مش معقولة اليوم كله شغال يعني، ماهر افضى ليا شوية، مش كل يوم هسهر أكلم نفسي عنك!

. طب أعمل أيه يعني..

. كلمني، أطمن عليا، بحب صوتك وبرتاح لما أسمعه يا أخي، تعالى بعد درسي نشوف بعض عاوزة ألمس أيدك وأبص في عيونك وأشوف حُبك ليا في عيونك الحلوة!

. حاضر، هحاول..

على الرغم من برودة حديثه ولكنه كان يفعل ذلك؛ لأنه يُحب عصبيتي، كان يُحدثني دائمًا بأنني أكون مُضحكة للغاية إذا تعصبت عليه، حاولتُ التماسُك؛ فقلتُ له:

. اوعدني يا ماهر..

. هحاول بقولك!

ثم قلتُ غاضبة:

. يخربيت برودك يا أخي، أنت طالع لمين بالظبط!

. طالعلك يا قلبي.

ضحكت بصوت لم يسمعه، ثم قلتُ بشيء من البرود:

. أضحك يعني!؟

. لا نكدي عليا يا روحي.

. ده لسه أما اشوفك، هتشوف النكد بجد.

فضحك بصوت عالٍ وقال:

. يبقى مش هتشوفيني..

تنهدت وقلتُ بعصبية شديدة:

. يبقى هقتلك!

. سفاحة.

سمعتُ صفارة الانتظار، فأخبرته بأن ينتظر؛ لأرى من يُهاتفني، وجدته يوسف أبن خالتي وصديق طفولة ماهر، فقلتُ:

. سلام بقى عشان أبن خالتي بيرن.

. سلميلي على صحبي..

. مش ناوي تقوله يا جبان؟

. طب ما تقوليله أنتي !

. خلينا نتعازم كدا لحد ما يعرف ويزعل منك ومني ونتقتل احنا الاتنين..

. مسيري هقوله..

. طب سلام سلام، اشوفك النهاردة بعد درس الكيميا!

. بإذن الله، سلام.

ماذا لو اجتمعت جميع الصفات التي تُحبها في شخص واحد ولكن قلبك يُريد شخصا آخر تمامًا غابت عنه تلك الصفات، ابن خالتي يُدعى يوسف، لو أن النبي يوسُف قد أخذ نصف جمال العالم؛ فلابن خالتي النصف الآخر، الشعر الناعم كالحرير وعيناه الزرقاء كالسماء الصافية، وقبل كل ذلك كان يمتلك ثروة لم أرها قط في أحد سواه؛ فعقله قلب وقلبه عقل!، شخص طيب يمتاز بنقاء قلبه وجنونه الشديد بالكُتب والروايات، وقت ما شئت أن أستعير كتابًا لا أذهب

لسواه، إنه أخ على هيئة حبيب ورفيق الليل وأب جميع الأوقات، أسراري جميعها معه ما عدا سرًا واحدًا نعم سر ارتباطي بصديقه ماهر وعلاقتنا العاطفية التي نشأت منذُ فترة ليست بطويلة، بمُجرد أن أغلقت مع ماهر الهاتف قُمت بالرد على يوسف، قال:

. كنتي بتحجي في مين يا أستاذة؟!

أخذت ريقي ثُم قلتُ بصوت خشن:

. كنت بكلم صاحبتي، هو أنا بتاعت حُب يابني!

. طب أيه رأيك أحب أنا فيكي النهاردة بعد درس الكيميا بتاعك وأخرجك؟

صُدمت قليلًا، ثُم تحول صوتي الخشن إلى صوت خافت... فقلتُ:

. درس الكيميا..

. آه يابنتي هستناكي، أول ما تخرجي هتلاقيني برة مستنيكي ببوكيه الورد الأحمر اللي بتحبيه.

فسألته:

. طب مينفعش نأجلها لبكرة؟

. لأ بكرة عليا دروس مهمة جدًا وأنا في تالتة ثانوي مش لسة طفل زيك في أولى يا ماما.

فكرتُ قليلًا ولكي لا يُلاحظ أي شيء؛ قلتُ له:

. ثواني يا يوسف هكلم ماما وأجيلك..

. ماشي بسرعة.

هل أُوافق وأؤجل اتفاقيتي مع ماهر لكي أراه؟، أم أرفُض وأتحجج له بشيء ما!، لم أطل في التفكير أيضًا، فأخبرتهُ قائلة:

. ماشي، هخلص وأخرجلك علطول..

فقال بصوت راضٍ:

. تمام، سلام ياقلبي.

لا أعرف لماذا لا تُريد الصُدف بأن التقي بماهر وأُصافح يديه وأُعانق عينيه، لماذا يُحارب القدر لقاءنا؛ هل بحر القدر لا يُريد أن تلتقي أمواجنا؟، ها قرر يوسف بأن يأخذني في نُزهة اليوم ولا مجال للفرار.،. لا أُحبذ الفرار من يوسف فحينما احتاج إليه في أي وقت؛ أجدهُ بجانبي كظلِ تمامًا، فهو لا يتحجج لكي يهرب مني ولا يُبرر حجته، حيثُما أردت وجوده وجدته بدون أن أُناديه؛ هو فقط يشعر بكل ما يدور بداخلي، يشعر بما لا يستطيع ماهر الشعور به أو يشعُر به ولكنه لا يكترث لشعوري، لا أعلم ولكنني قررتُ تأجيل مُقابلة ماهر غدًا..

عندئذ أمسكت هاتفي مرة أُخرى لكي أُهاتف ماهر وأُخبره لكي يُؤجل لقاءنا للغد ولكن فوجئت بأنَّ هاتف ماهر مُغلق!

***

الفصل الثاني

الآن.

بعين دامعة وقلب مُفتت من الاشتياق قلتُ:

. وحشتيني أوي يا ماما..

فردت بصوت مُفتت من الحنين:

. وأنتي وحشتيني أكتر يا بنتي، طمنيني عليكي وعلى جامعتك!

. تمام الحمد لله، بحضر أغلب المُحاضرات أدعيلي..

. بدعيلك دايماً وبفتكرك في كل صلاتي!

قلتُ بصوتٍ معدوم الشغف:

. بابا وأخواتي عاملين أيه؟

. بخير، بس أبوكي كالعادة متنرفز عليهم وعليا..

. معلش يا أُمي أستحملي..

حاولت التظاهر بالقوة؛ لكي لا أتأثر أنا فقالت:

. مستحملة وراضية، المهم أنتي خدي بالك من نفسك ومن دراستك..

. حاضر، سلميلي على الكل، سلام عشان هلبس للجامعة..

. من عنيا، سلام ياحبيبتي.

كان ما زال الوقت أمامي لكي أرتدي ملابسي وأخرج إلى الجامعة، ولكن كنت أريد البُكاء؛ بُكاء شديد على أُمي التي تحملت الكثير فوق طاقتها حتى أصبحت فاقدة الطاقة، ولكنها كانت تخبرني أنها تستمد

طاقتها مني وأنني مصدر قوتها، أُمي التي لو كانت جبل: لسقط من كثرة الهموم، لو أنها حائط: لهُدم، لقد تحملت الكثير من أجلنا: إهانات، سب، لعن، وأكثر من ذلك... كانت تزعُم أنها بخير، تُخفي نحيبها خلف ابتسامتها لنا، ثُم تهم بالدخول إلى غُرفتها، أنظرُ إليها من ثُقب الباب فأجدها تبكي: بُكاؤها كرصاصة تُصوب في قلبي فينزف حُزناً، أُمي الوفية إلى أولادها، عملها، منزلها، زوجها، لو كان الوفاء وطنا: لكانت أُمي ملكة هذا الوطن، أُقسم بأنَّ دعوات أُمي لي تحمل كل معاني الصدق..

وهذا لا يعني أنني لا أُحب أبي فالجميع يُحبون آباءهم، ولكن هُناك من لا يحبون نظرتهم السيئة لأولادهم، عدم الثقة فيهم، إهانتهم المُتكررة، أيديهم التي تصفعُنا بقوة: فتهبط على وجوهنا كالصاعقة، هذا الذي يخلق ضعفنا كالدولة التي تُحارب أولادها: فتخلق اليأس فيهم، تخلق الرُعب والعيش في جحيم، تجعلهم يميلون إلى العُزلة، لو أن هؤلاء الآباء المُضطهدين يتخيلون نظرتنا لأب يُداعب ابنته، يُعانقها، يُقبل رأسها: لحنوا، وإنْ لم يحنوا: فعلى قلوبهم الرحمة!

انتهيتُ من بُكائي المُطول، ذهبتُ إلى دورة المياه وغسلتُ وجهي الذي ساد عليه الاحمرار من كثرة النحيب، ثم هممت لارتداء ملابسي وأخذت حقيبتي وخرجت مُسرعة..

أثناء اقترابي من الجامعة، التقيتُ بصديقي مازن: مازن شخص بسيط للغاية، طيب القلب، كثير التفاؤل، هو منبع الأمل لي حالياً، عرفته من ثاني يوم التقينا به في الجامعة: فأطمأن قلبي لهُ..

. أميرة؟

نظرت خلفي وقلتُ:

. مازن، أخبارك أيه؟

. تمام الحمد لله، وانتي؟

. بخير..

. مش واضح عليكي خالص أنك بخير!

مازن الشخص الذي يفهمني دائمًا فبمُجرد أن ينظر إلى عيناي يعلم إذا كنتُ بخير أم لا، لا أُجيد التمثيل أمامه على الرغم من جميع مُحاولاتي، فقلتُ بحُزنٍ:

. كلمت ماما النهاردة، خلصت معاها وقعدت أعيط، أُمي وحشاني أوي يا مازن ووحشني حضنها..

. طب سافري شوفيها يومين وتعالي..

. مينفعش؛ بابا هيزعقلي ويقولي أنتي سايبة جامعتك وجاية، كأني مش بوحشه يا مازن ولا عاوز يشوفني..

. يمكن فعلاً خايف على مصلحتك؟

. تاني هتقولي مصلحتى يا مازن!، بص هو عمره ما خاف على مصلحتى دايمًا شاغل باله بكلام الناس، بيخاف على شكله هو، أنا تعبانة اوي..

صمت مازن؛ شعرتُ بأنه وصل إلى أقصى درجات الشفقة، بينما أنا كنتُ في أدنى قاع اليأس، قطع صمتنا صديقتنا أمل التي كانت تنتظرنا أمام الجامعة؛ لتصرخ في وجوهنا قائلة:

. المحاضرة بدأت وانتوا ولا على بالكوا، قدموا شوية يا بشمهندسين!

ها أنا أجلسُ كعادتي في مطعم بداخل الجامعة، أتأمل أوجه الأُناس إلى أن يأتي طعامي؛ فألتهمه مثلما يلتهمُ الحوت غريقًا من شدة

جوعه!، ثُم أتت أمل وجلبت كرسيا لها وجلست بجانبي، ثُم ابتسمت وقالت لي:

. قاعدة بتاكلي من غيري؟

. لأ أنا في الأكل معرفش أمي.

ضحكت بصوت عالٍ، ثُم قالت:

. يا ساتر عليكي، خايفه تاكليني أنا شخصيًا

ضحكت أنا الأخرى ثُم نظرت لجسدها وقلتُ:

. ياريت، أنا موافقة جدًا.

. طب كلي أخلصي يا لمضة عشان زمان مازن جاي وهنمشي.

. حاضر.

أمل شخصية محبوبة فوق الوصف؛ نظرًا لخفة دمها، كانت مرحة جدًا حتى في الأوقات التي لا تستوجب المرح، بالإضافة إلى جمالها؛ تملكُ شعرًا بُنيًا جذابًا، وجهها أبيض من السُحب، أنيقة جدًا، تعرفتُ عليها في هذا المطعم في أول يوم من الجامعة... تحدثنا واتفقنا بأنْ نكُن أصدقاء حتى تطورت صداقتنا؛ فأصبحنا كُل يوم لا ندخل الجامعة إلا عندما أجتمع أنا وهي ومازن، وها قد مر شهر على ذلك الوضع، ولكنني علمت من مازن أمر غريب قليلًا لم أتوقعه عنها، أتذكر حديثه حين قال:

. شايفاها بتضحك أزاي؟

. آه ضحكتها حلوة اوي.

. على الرغم من ضحكها ده، جواها ميتة من الوجع..

نظرتُ إليه بغرابة، ثُم قلتُ:

. ليه!؟

. أبوها بعد ما خلفها بخمس سنين سابها مع أمها واختفى مبقاش له أثر، بس أمها عرفت بعدين أنه سافر الخليج لشغل ومكلمهمش ولا مرة، نفسي أعرف جايله قلب ازاي، لو حتى مش عشان مراته؛ فعشان خاطر بنته دي، مش كدا وبس ده في حاجة أصعب..

أخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ:

. في أيه؟!

. أُختها

. مالها؟

. أنتحرت..

صُدمت للغاية، فقلتُ:

. بتتكلم بجد!

. آه طبعًا، ربنا يرحمها..

ثُم قلتُ وأنا أنظر إليها بكثير من الحزن:

. يارب يا مازن..

ها قد أتى مازن بينما أنا قد انتهيتُ من طعامي، أشرب مياه غازية، جاء من خلفي فأنتشلها من يدي قائلاً:

. عيب كدا تاكلي وكمان تشربي لوحدك.

قلتُ له غاضبة:

. هات الإزازة يا رخم..

. خلاص الرخم خلصها!

أُحب كثيرًا المُزاح مع مازن وأمل، لا أستطيع تخيل حياتي هُنا بدونهما، هم إخوة الغُربة..

. طب يلا نمشي يا رخمين..

قالت أمل:

. ثواني هخلص إزازتي أنا كمان ونمشي.

فأنتشلها مازن أيضًا وشرب المُتبقي منها، ثُم قلنا أنا وأمل في صوتٍ واحد:

. عيل رخم..

خرجنا من الجامعة ودعنا بعضنا، وذهب كلٍ منا إلى منزله.

***

منذُ ثلاث سنوات.

. أميرة!

. نعم يا أستاذ؟

. سرحانة في ايه؟

. مش سرحانة، مركزة معاك اهو..

. طب متسرحيش وركزي.

. حاضر..

في الحقيقة لم أنتبه لكلمة واحدة من درس اليوم، فقط أُفكر في ماذا لو أتى ماهر ورآني يوسف وأنا معه، جسدي هُنا وعقلي يُفكر في

شيء آخر، أعضُ أظافر أصابع يدي اليُمنى وأهزُ قدماي؛ هذا ما يفعله التوتر دومًا في الإنسان..

إنَّ يوسف وماهر توأمان، ولكن من أب وأُم مُختلفان، يعرفان بعضهما منذُ أن كانا أطفالًا يزحفون، لم أرَ في حياتي علاقة صداقة قوية إلى هذا الحد، عندما كنتُ طفلة وأذهب مع يوسف إلى منزل ماهر لكي نلهو، كانا يتركاني وحيدة ويذهبان سويا ليلعبا بالكرة، كنتُ أذهب إليهما لأطلب منهما أن ألعب معهما؛ ولكن كان الرد واحد:

. اللعبة دي للولاد بس، روحي العبي مع عروستك.

مهما توسلت إليهما فلا جدوى من التوسل، كبرا سويا وظلت علاقتهما قوية، أعتقد أنهما تشاجرا مرة واحدة فقط، ثم بعد عشر دقائق عادت الأمور على طبيعتها، ولكن أخشى أنْ أكون أول من تسببت في خصامهما أو شجار حقيقي بينهما، ولكن الذي يُطمئن قلبي قليلًا أن يوسف شخص مُتفهم جدًا، عقله يصل إلى أقصى مراحل نُضج التفكير، ولكن اللوم سيكون حول عدم معرفته بعلاقتنا منذُ أن أعترف ماهر بحُبه لي إلى الآن، قلتُ لماهر كثيراً أن يُحدثه في ذلك الأمر ولكنه كان خائفًا أيضًا من رد فعل صديقه ومُرتبك، فكان يؤجل الأمر دائمًا..

. يوسف، واقف عند بتاع الورد بتعمل أيه؟

. ماهر، طب قول عامل أيه الأول يا عم!

. أنت هتستهبل، مانا لسه شايفك الصبح وأحنا بنجيب فطار.

ضحك يوسف، ثم قال:

. أنا رايح مشوار كدا مهم..

. مشوار مهم أيوه ياعم وجايبلها ورد ومدلعها أهو، وأنا صديق طفولتك مفتكرتنيش بسيجارة حتى.

ضحك يوسف هذه المرة بصوت عالٍ، ثُم رد قائلًا:

. يا بني ده لحد عزيز على قلبي مش اللي في دماغك يا بابا أنا مش برتبط، قولي بس أنت رايح فين كدا؟

. أنا بقى رايح اقابل حبيبتي، ومش واخد ورد ولا حاجه عادي!

. عشان أنت بجح بس، مش ناوي تقولي بقى هي مين؟

بلع ماهر ريقه ثم قال:

. قريبا بإذن الله، عاوز حاجة؟

سأله رغم علمه بالجواب المُعتاد منه:

. هشوفك النهاردة في الدرس!

. لأ مانت عارفني، هتلاقيني على القهوة.

. يا بني أحضر يوم!

. حرام..

فقال بخوف شديد على صديقه:

. والله أنت اللي حرام عليك نفسك، هتضيع مجهود 12سنة، بس تمام أنا هخلص الدرس وهجيلك على القهوة الساعة 9 كدا.

. تمام سلام ياحبي، الحق مشواري أنا.

. سلام.

انتهى درس الكيمياء وأثناء خروجي مُسرعة نادى على أُستاذ المادة، ثم قال:

. كنتي سرحانة النهاردة اوي، مالك؟

فنظرت إلى الأرض وقلتُ:

. تعبانة بس شوية يا مستر..

. لا سلامتك، ركزي معايا لأنك شاطرة جدًا ومُتفائل فيكي خير..

. حاضر، عن أذنك بقى..

. أتفضلي.

خرجتُ إلى الشارع، أنظُر حولي من كل اتجاه إذا وجدت ماهر؛ سأخبره بأن يرحل، ولكن ماهر غير مُلتزم كثيرًا بمواعيدنا فبالكاد لا يأتي، فكرتُ أيضًا في أن أرحل أنا إلى المنزل وألا أرى هذا ولا ذاك، قلتُ لنفسي إذا أتوا وتقابلا؛ فسوف يجد ماهر كذبة يقولها، قررت الرحيل ولكن بمُجرد أن التفتُ وجدتُ ماهر يقول:

. حياتي دي ولا أيه..

لم يكن هُناك وقت للمُزاح، قلتُ له:

. أنت فين يا بني من بعد مانا قفلت معاك عشان اكلم يوسف، خلصت معاه وبرن عليك تليفونك مقفول!

. تليفوني فصل وسايبه على الشاحن هناك أصلًا في البيت بس ليه؟، مالك كدا؟

لم أُفكر في أن أُصافحه أو أي شيء سوى أن يبتعد ويرحل من هُنا، فقلتُ:

. يوسف قالي أنه هييجي النهاردة بعد درس الكيميا هيخرجني ويفسحني، حاولت أتحجج بس معرفتش وهو زمانه جاي..

. عشان كدا كنتي بترني عليا عشان مجيش؟!

. أيوة، لازم تمشي دلوقتي أصلاً..

قال ماهر بدهشة:

. يعني يوسف جايب بوكيه الورد وجايلك أنتي!

. أنت شوفته!

. آه كان واقف بيشتري ورد، والمصيبة أني قولتله رايح أقابل حبيب..

لم يُكمل ماهر الكلمة؛ فإذا بيوسف أتى ويقول:

. ماهر!!

***

الفصل الثالث

. ماهر!، بتعملوا أيه مع بعض هنا!!

التفتنا أنا وماهر ليوسف، ارتبكتُ كثيرًا، في هذه الثانية سألتُ نفسي ما لم أسأله في اليوم الكامل، كانت التساؤلات تجري في عقلي بسرعة البرق، ماذا سيقول ماهر!، هل سيُخبره بالحقيقة؟، هل لو أخبره سوف يتفهمنا، أم سيصرخ في وجهي، هل سيكذب ماهر على يوسف!، هل يوسف سيُصدق كذبته بكل سهولة؟!

مرت الثانية، فإذا بماهر يقول بثبات أبهرني:

. أيه يابني أنت فين؟

رد يوسف عليه مُتعجبًا:

. في أيه، أيه اللي حصل!

. مش عيب عليك تسيبها في الشمس ده كله لوحدها، والشباب يرخموا عليها، عديت بالصدفة رايح مشواري من الطريق ده لقيت شوية شباب بيعاكسوها زعقتلهم وكنت هضربهم، قالتلي إنها مستنياك أنت فوقفت معاها استناك وربنا يسامحك أخرتني على المعاد الغرامي..

ثم سألني بعصبية شديدة:

. ده بجد!!

حاولتُ في تلك اللحظة تمالك أعصابي، وحاولتُ أنْ أدعيّ الثبات مثل ماهر، ثم قلتُ:

. آه بس ملحقوش يقولوا حاجه متقلقش، دي مش أول ولا أخر مرة يعني يابني عادي الشباب أغلبيتهم بقوا أوساخ كدا، أنت بس أتأخرت كنت فين؟

أخذ يوسف نفسًا عميقًا، ثم قال مُتأسفا لي أولًا:

. أنا أسف أنا عارف أني أتأخرت عليكي شوية، حقك عليا يا حياتي..

ثم شكر ماهر وتأسف له:

. أسف أخرتك على معادك، وشكرًا أنك عاملتها على أنها أختك.

. أختك هي أختي يا عم ميهمكش..

. حبيبي يا اخويا ربنا يخليك ليا، يالا روح أنت معادك عشان متتأخرش!

نظر لي ماهر نظرة سريعة لم يُلاحظها يوسف، ثم خطي خطوات بعيدة عنا، لاح بيده ليوسف وقال:

. تمام، هخلع أنا بقى أنا متأخر اوي أصلًا.

. تمام، اشوفك بليل زي ما قولنا، سلام.

. سلام.

ذهب ماهر بعيدًا ثم قال يوسف لي:

. يالا أحنا بينا بقى..

سألته:

. على فين!

. هنروح كوبري استانلي والسينما

دلفت مع يوسف وأنا أُفكر في أشياء كثيرة، كنتُ أود أن يعلم يوسف حقيقتنا؛ أن يعلم بأنني غرقتُ في حُبه، أن يعلم بأنني أُعاني من غيره، وأن الحياة من دونه لا تُصلح للعيش، الحياة من دونه ليست حياة؛ لأنه الحياة بأكملها، إلى متى سوف يختبئ السر ويختبئ ماهر بداخلي دون العلن والبوح ليوسف بذلك؟، ولكنني كنتُ مُدركة أنه لم يكُن الوقت المُناسب للاعتراف، وصلنا إلى كوبري استانلي في تمام الساعة السادسة، كانت توجد مقاعد تجلس عليها بمُقابل البحر، ترى بعينيك كل ما هو رائع، خاصةً ليلًا؛ حيثُ النجوم والبحر والهواء وأفكارك، قال لي يوسف:

. تعالي نقعد هناك؟

ذهبنا وجلسنا والصمت عم في مجلسنا، لا أعلم بماذا يُفكر يوسف ولكنني أعلم جيدًا بماذا أُريد أن أُفكر أنا؛ ما زالَ ضميري يؤلمني من تلك الشيء الذي يُراود تفكيري في كل وقت، متى تقولين ليوسف الحقيقة؟ حقيقة علاقتك مع ماهر، لماذا تُخفينه على أكثر شخص يتفهمك؟، أُريد أن أتجرأ فقط خمس ثوانٍ أُخبره ومن ثمَّ أعود إلى خجلي من جديد، آه يا يوسف لو تعلم كيف أتعذب بسبب ذلك الأمر؛ لعذرتني عندما تعلمه!

. مخدتيش الورد بتاعك يا ورد!

لم أنتبه لحديثه؛ فكنتُ أنظر إلى البحر بتمعُن وأُفكر بتركيز شديد، ثم هز يدي قائلًا:

. مسمعتنيش؟!

فألتفت إليه بسرعة وقلت:

. أنت قولت حاجه!

. آه قولت..

فاعتذرت قائلة :

. معلش مخدتش بالي والله من منظر البحر الجميل، قولت أيه بقى؟

. قولت مخدتيش الورد اللي أنا جبتهولك يا ورد، بس لو مش عاوزاه عادي أخده أنا!

فضحكت، ثم قلت له:

. أبتدينا غلاسة.

فقال مُدعيًا البرود:

. تسلميلي يا قلبي، ده من زوقك.

. طب هات الورد يا رخم..

أخذته منه وشممته بكل براءة وكأنني طفلة مندهشة من جمال منظره وجمال رائحته التي تنعشني من الداخل، فنظر لي نظرة طويلة ثم تحدث قائلًا:

. عارفه بقى أنك أحلى من الورد ده كله، عارفة أن ريحة نفسك أحسن من ريحة الورد ده!، عارفة أن خدودك الحمرة دي أجمل من شكل الورد الأحمر، الورد مسيره يدبل، بس أنتي مبتدبليش أبدًا، حتى لو دبلتي عندك إمكانية ترجعي تاني زي ما كنتي، إنما الورد لو دبل خلاص يبقى مات..

كُنتُ أستمع إلى حديثه هذا وأنا أنظر إليه، بينما هو ينظر أسفله ويتكلم من صميم قلبه، ابتسمت وأحمرت وجنتاي بمُجرد الحديث عنها، ثم قلتُ له:

. مش عارفة أقولك أيه على الكلام الحلو ده يا يوسف، أنت أكتر من مجرد أخ، أنت أعز إنسان على قلبي، دايمًا بعتبرك سندي، الحيطة اللي لا يمكن تميل بيا أبدًا!

فابتسم هو الآخر، ثم قال:

. ربنا يخليكي ليا يا بنت خالتي..

. ويخليك ليا.

شيء بداخلي يُحدثني لأُخبره الآن، هذا أنسب وقت يا أميرة تماسكي وتحدثي له عن كل شيء، أنهض يا قلبي لقد حان وقت إظهار حقيقتك، أخدتُ نفسًا طويلًا ثم قلتُ:

. يوسف!!

نظر إلي وقال:

. عيوني؟

وقبل أنْ أنطق إليه بكلمة واحدة رن هاتفه فرد على هاتفه ووجدتُه يقول:

. آه علينا درس 7 ونص، لأ أنا في مشوار وجاي حالًا، نص ساعة وهكون عندك متقلقش، سلام.

ثم عاد مرة أخرى ونسى أنني قد ناديت عليه قبل أن يتحدث في الهاتف، فقال:

. معلش يا أميرة إحنا مضطرين نمشي دلوقتي عشان عليا درس، أنا قولتلك هنروح السينما بس والله مفيش وقت بأذن الله هعوضهالك في أي وقت..

. لا ولا يهمك ياحبيبي يالا نمشي أنا كدا كدا تعبانة وعاوزة أنام..

ثم وقفت من مجلسي وركبنا سيارة أعادتنا إلى حي العجمي، ذهب إلى درسه وعدتُ أنا إلى منزلي مع سري.

***

الآن.

مرت الأيام كسابقها، لا جديد يُذكر حيثُ أفق من نومي الساعة السابعة صباحًا، أُحدث أمي على الهاتف، ثم أرتدي ملابسي وأذهب إلى الجامعة مُتأخرة مع مازن، تنتظرنا أمل أمام الجامعة وهي تصرخ في وجوهنا بأن نُسرع، نأخذ مُحاضراتنا ونأكل في مطعم الجامعة ثم يذهب كلٍ منا إلى منزله، أحيانًا أُذاكر وأقم بالأبحاث والنشاطات وأحيانًا أخرى أنم وأفيقُ ليلًا، والليل أيضًا كسابقه: الظلام يعم في غُرفتي، فقط ضوء هاتفي إنه ضوء ماهر ينبعث من الهاتف؛ صورته التي أُحبها كثيرًا وهو جالسًا على الشاطئ ويبتسم، ابتسامته التي تبعث الأمل إلى قلبي المُتألم، بدون أدنى شك ابتسامته هي الأعجوبة الثامنة، ثم أنظر من الهاوية على الأُناس العابرين تارة وأستمع إلى الموسيقي أو أُشاهد التلفاز تارةً أُخرى، ويكتمل ليلي البائس بوضع رأسي المُمتلئة بالأفكار التي يُسببها قلبي المُمتلئ بالآلام لحين نومي..

وفي يوم الثلاثاء حدثت أشياء جديدة؛ تغير روتين يومي عندما فقتُ من النوم على صوت هاتفي، اعتقدتُ أنه مُنبه السابعة وعندما أمسكت به بعيني المُغلقة فتحتها بسرعة فوجدتُ الساعة السادسة وأنَّ مازن يُهاتفني، أجبتُ على الهاتف، فإذا به يقول:

. صباح الخير.

. صباح الفل يا مازن، في حاجة!

فقال بصوتٍ خجولٍ:

. أنا أسف جدًا يا أميرة بس أنا محتاج أستخدم اللاب توب بتاعك نص ساعة أو ساعة بالكتير، في حاجة كدا مهمة للجامعة عشان اللاب بتاعي النت فاصل من إمبارح وسهران على أمل أنه يرجع ومرجعش خالص فقررت أجيلك.

. طب تعالى أنا مستنياك أهو.

. لأ مانا تحت البيت أصلًا

. بجد!، طب أطلع الدور الخامس وهفتحلك..

هممتُ بالنهوض بسرعة شديدة لكي أرتدي حجابي قبل أن يصعد مازن، أردتُ أن أُغير بيجامتي التي أنم فيها، ولكن للأسف الشديد ليس يوجد وقت لذلك. دق باب البيت، انتهيتُ من ارتداء حجابي، ثم ذهبت لأفتح لمازن

فتحتُ له الباب فإذا به يقول:

. أسف جدًا تاني يا أميرة.

فقلتُ:

. أتفضل يا بني متبقاش أهبل أنت أخويا..

دخل ثم أخذته إلى غُرفة جهاز اللاب توب، فتحتُ له الجهاز فوجد صورة شخص على الشاشة الرئيسية؛ فقال لي مُبتسمًا:

. هو ده بقي ماهر؟

هززتُ رأسي وقلتُ:

. أيوه هو ده اللي مجنني..

. ملامحه حلوة

. أوي..

. بإذن الله هترجعوا..

صمتنا لحظات قليلة وعندما لاحظ على وجهي الحُزن قال مازحًا:

. يعني هبقى مصحيكي بدري وكمان منكد عليكي، قومي أغسلي وشك والبسي على ما أخلص أبحاثي..

فضحكتُ وقلتُ:

. وحياتك متنكدة ليل ونهار، أنا هقوم خد راحتك البيت بيتك..

نهضتُ أغسل وجهي وارتدي ثوب الجامعة ولكن كالعادة أمسكتُ بهاتفي أولًا لكي أُهاتف أُمي؛ لم تجب في المرة الأولى فهاتفتها مُجددًا ولم تجب أيضاً..؛ فذهبتُ لأرتدي ملابسي وفي ذهني أُمي لماذا لا ترد أُمي على الهاتف!، هل ما زالت نائمة ولكن عادةً تستفيق من الفجر لكي تُحضر الإفطار لإخوتي الذين يذهبون إلى المدرسة، وأبي الذي يذهب إلى عمله...، أنا كعادتي لا أتغيّر: أُقلق نفسي بدون داع للقلق...، ولكن صوت أُمي صباحاً يُدخل إلى قلبي الطمأنينة..

غسلتُ وجهي وارتديتُ ملابسي ثم ذهبت إلى مازن، وقلتُ له:

. قربت تخلص؟

. خلاص خمس دقايق بالكتير.

جلستُ بجانبه وأمسكتُ بهاتفي مُجدداً وهاتفت أُمي، أبتلع ريقي وأقول في سري:

. ردي بقي يا ماما..

ولكن الكلمة خرجت علناً؛ فسمعها مازن وقال:

. في ايه؟

فقلتُ بصوت قلق:

. رنيت على أمي تلت مرات ومردتش عليا..

. مش يمكن مشغولة في حاجه، أو لسه نايمة أصلاً، أو مسمعتش التليفون؟

. معرفش بقي بس هي عادةً صاحية عشان إخواتي الصغيرين وبابا بتحضرلهم الأكل وبكلمها كل يوم في الوقت ده من ساعة ما جيت الجامعة، أول مرة متردش عليا..

فحاول طمأنة قلبي :

. متقلقيش خير يابنتي!

. أنا من النوع اللي الوسواس بيسيطر عليه لما تحصل حاجه زي كدا، لو حاجه طبيعية بتحصل علطول أتغيرت بقلق أوي..

صمتَ ثواني ثم قال:

. في ناس كتير كدا بس بنصحك تتخلصي منه؛ عشان متعب جداً لتفكيرك.

. هحاول..

. طب يالا أنا خلصت، أطفي اللاب ولا عاوزاه في حاجه؟

. لأ أطفيه..

نزلنا إلى الشارع لكي نذهب إلى الجامعة، وكعادتنا مُتأخرين على أمل..

أثناء ذهابنا أتصلتُ بأمي مرتين ولم تجب أيضاً، أخذتُ نفساً عصبياً من أنفي ووضعت الهاتف في جيبي..

وصلنا واليوم الغريب يزداد غرابةً!؛ ها هي أمل لأول يوم منذُ أن أصبحنا أصدقاء لا تنتظرنا أمام الجامعة..

قال مازن:

. أخيراً هناخد حقنا منها، دانا هزعقلها في وشها زي ما بتعمل معانا أما نيجي متأخرين.

فقلتُ:

. وأنا هخبطها على كتفها زي ما بتعمل معايا الحيوانة دي..

جلسنا على جانب ننتظرها، وهاتفت أُمي للمرة السادسة؛ لم تجب... فقال مازن:

. طب ما ترني على أبوكي؟

. مش متعودة أني أرن عليه الصبح كدا..

فسألني مُندهشاً:

. وهيحصل أيه يعني!

فقلتُ له:

. هيحصل حاجات كتير... هيقولي أنتي دلوعة ماما وبتتصلي بيها الصبح، وهيقول كلام هيزعل أمي..

صمت قليلاً ثم قال:

. هيقول ايه!

. هيقول متخافيش أمك مش هيخبطها قطر..

. بعيد الشر، متقلقيش هترد عليكي.

. بأذن الله..

انتظرنا أمل نصف ساعة لم تأتْ فقلتُ لمازن:

. أتصل بيها كدا؟

فقال:

. معييش رصيد للأسف أخر دقيقتين اللي كلمتك بيهم الصبح..، أتصلي أنتي؟

. حاضر.

اتصلتُ ثلاث مرات، ثم قال مازن:

. ايه؟

. مبتردش بردو!!!

الفصل الرابع

مُنذ ثلاث سنوات.

. أنت مش قولت مش هتيجي الدرس؟

رد ماهر:

. ربنا هداني يا أخي وقالي أجي، عندك مانع؟

. لا ياعم ربنا يهديك دايماً.

يوسف يُنصت إلى حديث أُستاذه جيداً، لا تخرج كلمة من فمه إلا للضرورة، أو ليسأل الأُستاذ في شيء، أما عن ماهر فهو يجلس صامتاً، لا يفقه شيئا ومهما نصت لن يفهم؛ بسبب تكاسله عن حضور الدرس كل حصة، وعندما يسأله الأُستاذ في شيء، لا يتلقي منه أي رد أو يقول أي شيء يُحرك به فمه فقط، قال يوسف لهُ قبل انتهاء الدرس بدقائق:

. لازم تحضر علطول بقي عشان تلحق تلم نفسك، ناقص تلت شهور على الامتحانات.

. بأذن الله..

صمت ماهر قليلاً ثم قال:

. أنا عاوزك في حاجة مهمة اوي بعد الدرس..

. ماشي، مش إحنا كدا كدا هنروح القهوة؟

. آه..

خرجا الصديقان من درسهما مُتجهان إلى المقهى الذي يجلسان فيه دائماً عند وقت الفراغ... جلسا على كرسيين بمُقابل بعضهما؛ لكي

يتحدثان عن الأمر الذي يُريد ماهر التحدث فيهِ، قال يوسف بشغب شديد وفضول نحو حديث ماهر:

. ها كنت عاوز تقولي ايه!!

أخرج ماهر سجائره وأشعل سيجاره، في نفس الوقت جاء كوب القهوة الفرنسي الذي يُحبه يوسف كثيراً، ثم قال ماهر:

. خير بأذن الله..

. في ايه؟

. هقولك يابني، احنا هنروح من بعض فين، ما احنا قاعدين اهو شويه.

قال ماهر ذلك؛ لأنه كان يُريد أنْ يُفكر مرةً أخرى في الأمر الذي يُريد إخبار يوسف به... فأخرج هاتفه مُدعياً أنهُ يلعب به، بينما هو يُفكر بالانسحاب من فكرته وأنْ يُخبره بأي شيء... ولكن شيء داخله يقول له أخبره، يكفي كُتماناً هكذا... وبينما هو يأخُذ أخر نفس من سيجارته، وأيضاً يوسف يرتشف أخر رشفة من قهوته الرائعة، قال:

. يوسف؟

رد بسرعة:

. نعم!!

وضع يده على يد صديقه وقال:

. اوعدني أنك هتفهمني ومش هتزعل مني الأول، وأنك هتقف جنبي ومعايا..

. من غير ما اوعدك يابني، أنت عارف إني دايماً جنبك ومعاك، إني مش بزعل منك أبداً!

ألقي ماهر عُقب سيجارته، ثم نظر إلى يوسف وأقترب منه وقال:

. أنا وأميرة بنت خالتك مرتبطين..

. ايه!!!!

قالها يوسف وهو يُحملق في عين ماهر ويفتح فمه مُستغرباً وبصوت عالٍ سمعه الأُناس الجالسين على المقهى، ثم قال مرة أخرى بصوت خافت:

. أنت بتقول ايه!، الكلام ده بجد!!!

رد ماهر وهو ينظر أسفله بخجل وخوف شديد مُتضح على ملامحه:

. ايوه بجد..

. من امتي!

. حوالي ست شهور كدا..

. يعني ست شهور مخبيين عليا أنت وأميرة؟، ازاي ده انتوا أكتر اتنين بثق فيهم!!

صمت ماهر قليلاً ثم قال:

. صدقني دايماً كنت عاوز اقولك..، ودايماً أميرة كانت بتقولي اصارحك، بس الأمر كان صعب عليا لأن أنا مصارحتكش من الأول..، وكل ما الوقت كان بيعدي كان الأمر بيزيد صعوبته..، أنا أسف يا صاحبي..

صمت يوسف وكأنه يقول بصمته هذا وبماذا يُفيد الأسف الآن يا رفيقي..، ها أنت خنت ثقتي بك، ستة أشهر وأنا لا أشعر بأي شيء تجاهكم..، حتى عندما رأيتكما معاً اليوم؛ لم أشك لحظة واحده فيكما..

ثم قال ماهر عندما لاحظ صمت يوسف وحيرته:

. أنا عارف أنك ممكن تكون فقدت ثقتك فيا، بس عارف كمان أنك هتفهمني...، هتفهم ليه خبيت عليك، ليه جيت قولتلك دلوقتي؛ لأنك أكتر حد بتفهمني..

نظر إليه يوسف وقال:

. مانا فاهمك، بس أنت كمان فاهم أني مبخدش قرار في نفس الوقت...، لازم أقعد أدرس قراري ألف مره عشان أتأكد أنه صح ولا لا...، هشوف القرار الأصح ليكم أنتوا الاتنين وصدقني مش هفرق بينك وبينها وهفكر فيك قبلها؛ لأنك أخويا زي ما هي أختي.

فقال ماهر وعيناه تلمعان:

. أتمني متخذلناش وتاخد القرار اللي يسعدنا أحنا الاتنين، صدقني من غيرها ولا حاجه..

وضع يوسف يده على كتف ماهر وقال:

. متقلقش..

عندما انتهيا من حديثهما قال يوسف:

. طب يلا نمشي؛ عشان تعبان وعاوز انام.

. يلا وانا كمان زيك..

. هحاسب على القهوة واجيلك.

مشيا سويا حتى وصلا إلى منزل ماهر، كان منزله يسبق منزل يوسف، ودعا بعضهما إلى لقاء آخر ولكن قبل أنْ يدخل ماهر لمنزله نادي عليه يوسف واقترب منه وسأله بصوت مُنخفض:

. ماهر؟

. نعم!

. هي عارفه أنك بتشرب.

. بشرب ايه..

. حشيش وخمرة واللي بتشربه ده علطول؟!

صمت ماهر، لحظة ثم قال:

. لأ، متعرفش حاجه ولا تعرف أني بشرب سجاير حتى..

أخذ يوسف نفساً عميقاً، وكأنه يحدث ماهر بداخله ويلومه، ماذا تُخبئ أيضاً عن أعز الناس إليك؟، هل هُناك أسرار أخري؟، وكيف ستُخبرها بذلك الأمر...

ثم قال له:

. ممكن متعرفهاش أنك قولتلي لحد ما اقرر!

. حاضر.

. تمام، أشوفك بكرة بأذن الله..

. بأذن الله، سلام.

. سلام.

أكمل يوسف طريقه وحيداً إلى منزله، شارداً في ذلك الشيء المُثير الذي لم يخطر على باله أبداً...، ليس قادراً على الصبر إلى أنْ يصلَ إلى منزله ويُفكر في الأمر، أخذ يُحدث نفسه ويُحرك بيديه وكأن شخصاً يمشي بجانبه ويُحدثه:

. أخر حاجة في حياتي كنت أتوقعها أنهم يطلعوا مرتبطين!، طب ازاي محستش وأنا أكتر واحد قريب منهم وبحس بيهم جداً، عشان كدا

أميرة بقالها فترة متغيرة ومبتسألش عليا كتير... دايماً اما أقعد معاها الاقيها سرحانة ومش بتركز كتير في كلامي... عشان كدا ماهر حاله متشقلب وبلاقيه مخنوق كتير، أفضل أسأله ويحلف أن مفيش حاجه، هو الحب بيعمل في الإنسان كدا للدرجادي؟، غريبة شخص زيي لسه لحد دلوقتي محبش ولا حس بحاجة ناحية بنت!، هفضل أحب في الكتب، الموسيقي، اللون الأزرق!... طب هعمل أيه دلوقتي وأيه القرار الصح اللي اخده ومندمش عليه بعدين، يارب ساعدني..

ثم في الصباح هاتفت ماهر، أشتقت إليه كثيراً، رد فقلتُ مُسرعة:

. صباح الخير يا حبيبي.

. صباح النور يا أميرة.

. رنيت عليك أمبارح بليل كتير مردتش عليا ليه ها، أنكد عليك بقي على الصبح!..

ابتسم ماهر ثم قال لي مازحاً:

. طب سلام يا قلبي هكمل نومي أنا.

. خد هنا أنت ما صدقت... بجد مردتش ليه؟

صمت ماهر وهلة، ثم قال:

. كنت نمت..

فقلتُ له بصوتٍ حنونٍ:

. طب هشوفك امتي ياقلبي بدل اليوم اللي اتقفشنا فيه دا؟

فقال:

. مش هعرف اليومين دول... التلات والأربع بيبقى عليا دروس وشغل.

. طب اشوفك الخميس؟!

فكر قليلاً ثم قال:

. تمام الخميس..، هشوفك فين؟

فكرت أنا أيضاً ولم أجد مكاناً غير الذي نتقابل فيه دائماً، فقلتُ له:

. في نفس المكان محطة الرمل ع الكورنيش الساعة 8.

. تمام، هقفل بقي عشان هلبس واروح الشغل.

. ربنا يعينك، سلام.

وقبل أن أُغلق المُكالمة، وجدته يقول:

. أميرة؟!

فقلتُ له:

. نعم يا قلب أميرة؟

قال بنبرة غريبة وكأنه يرتجف عند قولها:

. بحبك..

. وأنا بحبك اوي..

ثم ودعني قائلاً:

. ربنا يخليكي ليا... سلام.

. يارب، سلام.

كيف تفعل كلمة واحدة هذا؟...، عندما يقولها أشعر بأنني أُريد أن أرقص من فرحتى، ليس أرقص فقط بل أُحلق عالياً في السماء، أُريد

أنْ أصل إلى النجوم وأُخبرهم بأنه قالها... أسألهم هل ينظر إليكم ويُحدثكم عني؟، هل يقولها لكم لتخبروني بها كل يوم؟... أُريد أن أرى القمر أيضاً وأساله: هل يُشبهني بضيك؟، هل يُشبهني بجمالك؟، هل أُنير سبيله مثلما تُنير أنت سُبلنا؟... يا الله كم روعة الكلمة وهو يُحرك شفتيه ويبوحُ لي بها، وأنا أيضاً أُحبك... إنَّ ماهر يعمل مع عمه في إحدى محلات البقالة منذُ صغره؛ فيثق فيه كثيراً ويأتمنه على ماله وعلى كل شيء ولا يعتبره عاملا معه؛ بل يعتبره مالكاً لذلك المحل الواسع... ودائماً ماهر يكون عند حُسن ظن وثقة عمه؛ فيُعطي العمل حقه كاملاً... أعلم أنهُ يُعاني كثيراً متاعب العمل ودراسته أيضاً، أُحاول أن أُخفف عنه أحياناً، وأحياناً أكُن من ضمن الأشياء التي تُتعبه..

ثم بعد يومين، أي يوم الخميس هاتف يوسف ماهر صباحاً وقال له:

. أزيك يا ماهر؟

. تمام وأنت؟

. تمام بخير... عاوزك ضروي بليل؟

فكر ماهر لحظة، ثم تذكر أننا سنتقابل اليوم؛ فقال:

. لأ بليل عندي مشوار مهم... العصر يناسبك؟

. تمام أشوفك العصر في القهوة، سلام..

. سلام.

كان يتبقى على العصر ساعة واحدة؛ فحضر ماهر نفسه وخرج إلى المقهى ينتظر يوسف... ثم أتى يوسف وجلسا كما المرة الفائتة بمُقابل بعضهما؛ ليتحدثا، ثم قال يوسف:

. أسف أتأخرت عليك، كنت بصلي العصر.

أخذ يوسف شهيقاً وأخرج زفيره قائلاً:

. أنا قررت..

. بجد!، وأيه قرارك!

قاطعهما عامل في المقهى وهو يقول:

. اجيبلكوا أيه؟

فرد يوسف قائلاً:

. أنا هاتلي قهوة فرنساوي، وأنت يا ماهر؟

. زيك..

أخرج ماهر سجائره كالعادة وأشعل سيجارة، ثم قال ليوسف:

. تشرب؟

. لأ أنت عارف أن الحمد لله بطلتها..

صمت يوسف وكأنه يُفكر للمرة الأخيرة في قراره الحاسم... ثم قال:

. بص يا ماهر، بطل الزفت اللي بتشربه وأوعدك أنها هتبقى ليك.

***

الفصل الخامس

صدمة شديدة على وجه ماهر، وكأن أحدا ما قد صفعه على وجنتيه بشدة، أو أنه ارتطم في حائط!

قال بدهشة:

. أنت بتقول أيه يا يوسف!!!

. زي ما سمعتني كدا يا ماهر بطل الهباب الأول وتعالي هسلمهالك بأيدي..

من وقع الصدمة لم يكن يعرف ماذا يقول، أصبح كالمجنون يلتفت حوله؛ ليبحث عن أحد...، ثم قال:

. مش عارف اقولك أيه...، أنت كدا متأكد أنك خدت القرار الصح؟، فكرت كتير؟، فكرت في كمية الحزن اللي هنبقي فيها..

. صدقني ده أحسن قرار ليكو حاليا...، بساعدك تبطل وبحميها منك..

رد ماهر بعصبية وصوت عالٍ؛ سمعه الأناس:

. تحميها مني إزاي يعني؟، هو أنا هقتلها!!!

نظر يوسف إلى الأناس من حوله وصمت قليلاً؛ لكي يُبعد أنظارهم عنهم، ثم قطع صمته صوت ماهر قائلاً:

. ما ترد عليا!

. أيوة أنت ممكن تأذيها!، أيه اللي يضمني أنك في مرة ممكن تطلب تقابلها وأنت سكران وترجع فاقدة عُذريتها!..، فكر في الكل متفكرش في نفسك لوحدك...، فكر فيها وفي صحتها، في أبنك يا أخي لو هتخلف

هياخذك قدوة حسنه ازاي... ماهر أنت لازم تتغير وبسرعة قبل ما يفوت القطر!

وضع ماهر وجهه بين كفيه، هو على مقربة من الانفجار؛ انفجاره من البُكاء، اللون الأسود ينتشر في أرجاء المقهى... قال لنفسه أنه البؤس يترك الجميع ويمسك بي أنا..

ثم قال:

. لما قولتلك من يومين أنك أكتر حد بتفهمني تقريباً غلطت... ثقتك فيا بقت معدومة، خايف عليها مني للدرجادي، طب فكرت فيا فين بقي!، قولت زي ما هي أختك أنا أخوك... طب ليه مقررتش أفضل معاها وأحاول أتغير... بس على العموم أنت هتفضل أخويا وهتفضل أعز إنسان على قلبي؛ إحنا عمرنا ما اختلفنا على حاجه من لما كنا أطفال لحد دلوقتي... عموماً تمام يا يوسف أنا هبعد عنها عشان مأذيهاش..

كانت كل كلمة يقولها ماهر تُحطم قلب يوسف، لا شك أنه كان يشعر بالذنب حينها تجاهه وتجاه أميرة، ولكن أحياناً يجب عليك التضحية بشيء ما من أجل آخر..

قال يوسف بصوت خافت:

. تمام، وأميرة هعرفها أنا..

. لأ..

. أيه!

. هقولها أنا وهفهمها بمعرفتي، هكلمها لأخر مرة تسمحلي يعني؟

. أكيد..

ثم وقف ماهر وقال:

. يالا نمشي..

. يالا.

لم يُخبره ماهر بأنهما سيتقابلان بعد ساعات، خرجا من المقهى، مشيا سويا حتى جاء الشارع الذي يوصل إلى البحر، فقال ماهر:

. أنا هروح أقعد على البحر..

سأله يوسف رغم علمه بالجواب:

. أجي معاك؟

رد ماهر واضعاً عينيه أسفله:

. لا محتاج أقعد لوحدي شوية..

. ابقي طمني عليك..

. حاضر... سلام.

. سلام.

لأول مرة يحدث هذا المشهد منذُ أن أصبحا صديقينِ، لأول مرة يفترقا في طريقهما... يوسف وماهر اللذان كانا سبيلهما واحداً، يسيران سويا دائماً...، وكأنهما جسدان بروحٍ واحدة، بقلبٍ واحد ونبضٍ واحد...، لأول مرة يضلان السبيل، يسير كل منهما بقلبين، بروحين، تختلف خطاهما وتختلف مشاعرهما تجاه بعضهما..

ذهب ماهر إلى شاطئ (البطاش)، جلس على كرسي ونظر إلى البحر يتحدث إلى نفسه كعادته، إلى الأمواج الخادعة، كأمواج الصداقة أيضاً..

منظر الموج رائع وأنت تنظر إليه من بعيد، ولكنه يحمل صيحات الغارقين، إشارات المُستغيثين، يحمل أخر أنفاس طفل أحبه وأمن له ولكنه خانه، يحمل أحلام غرقت مع أول موجة عاتية اصطدمت بها، يبعث رسائله إلى الأناس بألا يقتربوا بصوته المُرعب، ولكنهم لا يتعظوا؛ فيقفزون بلا مُبالاة لحياة طويلة على قيد الفناء، لبناء على وشك الهدم.. الموج مُستمر ورغبتك في القفز مُستمرة، ولكن عليك أن تختار متى تقفز؛ حتى لا تُصبح من الغارقين..

بداخل عينيه الكثير من الدموع، تتساقط كأوراق الشجر في الخريف... بداخل قلبه الكثير من الألم يُسيطر الآن على قلبه وينتشر فيه، كانتشار السرطان في الدم... كانتشار السواد أسفل العين..

بينما على الجانب الآخر يجلس يوسف على مكتبه، واضعاً يديه على وجنتيه، يتخيل بأنه ما زال يجلس مع صديقه في المقهى مُقابل بعضهما وقد جاء الدور بأن يبوح بما داخله، يُبرر قراره هذا، غلب صمته وتمتم ببعض الكلمات العالقة في قلبه:

صديقي بالكاد أنت تشعر بأنك وحيد الآن، بلا مأوي، بلا صديق تتكئ عليه، ولكن ماذا أن وضعت لك كتفي دائماً وأنا أعلم أن نهايتك السقوط!، يجب أن أفلت كتفي وأجعلك تتكئ على نفسك قليلاً؛ لكي لا تسقط... ولكنني بجانبك دوماً، بدون أن تشعر أنني بجانبك، بدون أن تراني وأنا أحملك؛ لأنهض بك عند سقوطك، بدون أن تسمعني أصيح في أُذنيك أن تنهض... أنت على حافة الإدمان، إدمان كل ما هو يقتل الجسد والقلب والروح... ولكنك عليك أن تختار بين إدمان المخدرات والكحول وبين إدمانها هي... أعرف جوابك جيداً؛ لذلك وضعتك في تلك الحيرة، وأعلم أنك في النهاية ستُدمن ما لا يؤذيك..

***

الآن.

. ها هنعمل أيه يا مازن!

صمت مازن، ثم قال:

. مش مهم ندخل الجامعة النهاردة وتعالي نركب ونروحلها، نطمن عليها..

أثناء سيرنا إلى السيارة التي تذهب إلى مدينة نصر، سألتُ مازن:

. تفتكر مالها؟

صمت مازن، لم يجب ولكنه سمع سؤالي جيداً...، اعتقدتُ بأنه يُفكر في سؤالي وسوف يجب عليه..؛ فقلتُ في نفسي مازحةً:

. هي الناس كلها مبتردش عليا النهاردة ليه؟، هما شايفين أني نكرة ولا أيه!

ثم قلتُ لمازن:

. يابني!

. نعم..

. بقولك تفتكر مالها؟

قال بصوت مُنخفض وكأنه يُحدث نفسه:

. خايف يكون اللي في بالي..

فسألته:

. هو أيه اللي في بالك!

هز رأسه وكأنه يُلقي تفكيره، ثم قال:

- لا مفيش... تعالي نركب العربية أهي واقفة.

حينها لم أسأله مُجدداً، ركبنا السيارة وذهبنا نحو منزل أمل..

أثناء ركوبنا كنتُ تائهة في سؤالي الذي لم يجب عليه، ماذا يقصد مازن بأنهُ خائف أن يكن ما في باله... ماذا يُخفي عني مازن، ولماذا هو قلق إلى هذه الدرجة..

عندما وصلتُ إلى مرحلة الملل واليأس من تفكيري وتساؤلاتي، أخرجت سماعتي ووضعتها في أُذني؛ لأستمع إلى الموسيقى... أنا في الحقيقة أختنق من ركوب العربات المُغلقة ولا أعرف أن أجلس إلا بجانب الهاوية، ولكنني أُحب السفر كثيراً، وعندما أشعر بالاختناق فالموسيقى خير وسيلة للتنفس... عندما أستمع إلى الموسيقى أشعُر بأنني في حديقة خضراء واسعة أسيرُ وحيدة، أنظر إلى الندى المُتساقط على الأزهار ومنظرها الرائع، الموسيقى تعني لي الكثير، الموسيقى هي الرفيقة الدائمة التي وقت ما احتاج إليها لا تخذلني مثلهم... الموسيقى رفيقة كل الأوقات، رفيقة الليل خصيصاً... الليل من دون الموسيقى كالبحر بلا سمك، كالعيش من دون أُم، كالأم العقيمة... كالأرض بلا أُكسجين... نعم الموسيقى هي الأُكسجين، هي كمهمة الأصابع في اليد، كالكعب في القدم، كالقلب في الصدر، كالدم في الشُريان... مهما تحدثت لن أوفي بحق الموسيقى تجاهنا... حتى وإنْ أُتيت بملايين الصفحات وآلاف الأقلام؛ لن أستطيع وصف دور الموسيقى وأهميتها..

ثم أثناء استماعي للموسيقى، نادى مازن على السائق:

- علي جنب هنا يا سطى..

أوقف السائق سيارته أمام منزل، فقلتُ لمازن:

- هو ده البيت؟

. أيوة هو.

كان المنزل مُتواضعا جداً ذا طابق واحد وحديقة صغيرة، ولكن أمل يبدو بأنها أبدعت في الرسم على جُدرانه، والكتابة عليه، ثم تذكرتُ شيئاً وسألت مازن:

. فاكر لما أمل رسمتني بالظبط وأنا بقيت مُنبهرة من جمال الرسمة

. آه، أمل مُبدعة ياما رسمتني..

ثم قلتُ:

. طب يلا ندخل نخبط.

دخلنا ودق مازن على الباب ودق الجرس كثيراً، ولكن لم نلق استجابة من أحد، يبدو بأن لا يوجد أحد في المنزل..

فقال مازن:

. تقريباً مفيش حد هنا، يلا نمشي..

وعندما التفتنا وجدنا أمل تنزل من سيارة، وجهها شاحب للغاية، تحت عيناها سواد لم أُلاحظه عليها من قبل، دلفنا إليها مُسرعين... فقلتُ لها:

. فينك يابنتي، مجتيش ليه ومبترديش ليه على التليفون!

لم تجب ولاحظت دموعها المُتجمعة داخل عينيها، فقلتُ:

. مالك يا أمل!!

لم تجب أيضاً، ووجدتها تُلقي بجسدها إلى صدري وتحتضنني، تبكي بُكاء شديدا... وكأن عينيها سُحب أمطرت دموعاً على كتفي؛ فأغرقته... ثُم عاودت سؤالي:

. مالك بس أهدي..

فقالت بصوت مُتقطع:

. أُمي يا أميرة..

. مالها!

ففلتت نفسها من حُضني ومسحت دموعها وقالت:

. هو مازن مقالكيش؟..

نظرتُ إليه وقلتُ:

. لأ، مقاليش حاجه!، مالها أُمك!

فعانقتني مرة أُخرى وقالت:

. أمي عندها السرطان يا أميرة...، وتعبت أوي النهاردة وخلاص أتحجزت في المعهد القومي للأورام..

. سرطان!!!!

نظرتُ لمازن مرة أخرى نظرة لوم عليه...، فنظر إلى اتجاه آخر، ثم قلتُ لها:

. طب أنتي جاية تعملي أيه؟

. جاية أجيب لها هدوم من هنا..

فأفلتها أنا من حُضني ومسحتُ أنا دموعها وقلتُ:

. طب يلا ادخلي هاتي وإحنا مستنيينك، هنيجي معاكي..

. حاضر، خمس دقايق وهنزل..

عندما دخلت إلى المنزل نظرتُ إلى مازن، كان حزيناً، صامتاً، فقلتُ:

. هو ده اللي كنت خايف منه..

. للأسف!

فسألتهُ بنبرة لوم:

. طب ليه مقولتليش أن أمها عندها السرطان..

صمت ثم قال:

. مجاش الوقت المُناسب.

***

الفصل السادس

انتظرنا حتى خرجت أمل من المنزل، تحمل حقيبة بها ملابس لأمها... رآها مازن فدلف نحوها وقال:

. هاتي أنا هشيلها عنك.

حمل مازن الحقيبة، ركبنا سيارة وصلت بنا إلى المعهد القومي للأورام السرطانية... لا يمكن أن أُوصف صعوبة المنظر عندما دخلنا..

ثمة طفل أصغر من طول ذراعي يجلسُ في غُرفة بردائه الأخضر، يبكي، يصرخ، يتألم من الوجع... طفل وُلد بعد عناء شديد من أُمه، وجد نفسه في مكان غريب... وثمة أحجام كبيرة تمسك بأرجله، وهو لا يفقه شيئاً، فقط يصرخ ويقول أعيدوني إلى بطن أُمي... أعيدوني إلى أكثر مكان دافئاً وأمناً... ثم أُجبر على العيش في هذا العالم، وبعد أعوام قليلة وجد نفسه في غُرفة تُشبه الجحيم، هؤلاء الأحجام الكبيرة يُعطوه شيئاً مؤلماً... وهو يقول لأُمه والدموع تذرف من عينيه كيف سمحتِ لهم بأنْ يفعلوا بي هذا... أُمي شعري يتساقط... نعم شعره تساقط وبقيت رأسه عارية وكأن المرض يُخبر الأطباء أن هذه ضريبة مُحاولة التخلص مني... في الغُرفة المُقابلة فتاة في عُمر العشرين عاماً، تجلسُ على سريرها وتضمُ رُكبتيها إلى صدرها... تضمهما وتُحاوطهما بأذرعها، تُحملق بأعينها في ركنٍ من الغُرفة، شاردة في آمالها منذُ طفولتها في العيش حياة سعيدة... آمال تتحطم رويداً، ما قامت ببنائه أعوام: يتحطم الآن... شاردة في أحلامها، التي ظنت يوماً ما أنها سوف تُحققها رُغماً عن الذين لم يُأمنوا بأنها قادرة على تحقيقها... وها هو القدر يقفُ سداً منيعاً أمام أحلامها، رافضاً ذلك، بل وحول الأحلام إلى كوابيس... كوابيس ليس بيديها التخلص منها، كوابيس لم تنته بعد..

ثم دلفنا قليلا، وجدنا غُرفة تجلسُ فيها امرأة قد تخطت الخمسين عاماً، تضع رأسها على وسادتها، تمسك بصورة تجتمع فيها عائلتها، حيثُ هي وزوجها وابنتاها، صورة كان يضحك فيها الجميع، تاركين هموم الحياة جانباً... تنظرُ إلى الصورة بعينيها الدامعتين، الصورة التي يتلاشى منها الجميع... فذهب الزوج بعيداً، في مكانٍ لم يعرفوا له أثر، حتى لم يطمئنوا عليه... تاركاً وراءه عائلته تُعانق كوابيسها كل يوم، يستغيثون به للعودة؛ فلم يعد إلى الآن... بينما الفتاة الصغيرة التي لم تستطع العيش بمفردها... نعم بالنسبة إليها الحياة من غير أبيها تعني العيش مُنفرداً، وحيداً بلا أحد يُخفف عنك، يواسيك، يحتضنك وماذا في الدنيا أجمل من حضن الأب وقُبلته والشوك الذي في لحيته... لم تتحمل فُقدانه؛ فرحلت إلى الأعلى تاركة رسالة قصيرة تقول:

"أبي إذا عُدت فأحتضن صورتي... سأشعُر بعناقك، وإذا لم تعد؛ فسنلتقي فوق وحينئذ سوف أُعانقك أنا.."

وبعد رحيل الأب وفتاة يبدو بأنه قد حان وقت رحيلها هي... ولكن الذي يؤلمها أكثر من ذلك المرض: بنتها التي سوف تتركها وحيدة وترحل..

دخلنا إلى غُرفتها، ألقينا عليها السلام وجلسنا... فقالت الأُم:

. أمل أنتي جبتيهم ليه؟

فردت أمل على أُمها:

. قابلتهم وأنا رايحة أجيب الهدوم، مرضيوش يمشوا وأصروا أنهم يشوفوكي..

فنظرت إليهم الأم وقالت:

. عامل أيه يا مازن؟

. الحمد لله يا أمي..

كانت الأُم تعرف مازن جيداً؛ فهو صديق أمل منذُ أعوام، ولكنها لم تتعرف علي سابقا، فقالت لي:

. أنتي صاحبة أمل؟

. أيوة يا أُمي..

فقالت أمل إلى أُمها:

. أيه يا ماما أنتي ناسية ولا أيه، دي أميرة اللي كلمتك عنها كتير، وقولتلك أنها طيبة، وحلوة، وقلبها أبيض... ما أنتي شوفتي صورتها وأنا برسمها؟

فردت أُمها مُتذكرة:

. آه أفتكرت... باين على وشها الطيبة، والجمال، ربنا يحميها.

فقلتُ لها مُبتسمة:

. تسلميلي يا أمي.

ثم قالت:

. أنا عارفة أن أمل غالية عندك أوي، زي ما أنتي غالية عندها بالظبط... خلي بالك منها دايماً!

. أمل دي أختي بجد... وبعدين ربنا يخليكي ليها ويديكي طولة العمر..

فقالت أمل:

. يارب..

ثم وجدتُ هاتفي يرن فقلتُ بصوتٍ مُرتفع قليلاً:

. يا ربي أنا نسيت ماما خالص..

فأخرجت الهاتف ووجدتُ أن أبي هو الذي يُهاتفني، استأذنت منهم أن أخرج؛ لأجب على الهاتف

خرجت وفتحت الهاتف، فقال أبي:

. أزيك.

. تمام الحمد لله... وأنت؟

. بخير.

. أيه برن على ماما؛ مبتردش خالص ليه... من الصبح وأنا برن عليها!

فوجدته صمت، ثم قال:

. أمك مش هنا... مع خالتك في المستشفي.

فسألته مُندهشة:

. مالها خالتي!!

. خالتك كويسة.

. يعني ماما هي اللي تعبانة!

. لأ بردو..

فقلتُ بلهفة شديدة:

. في أيه يا بابا!!

أخذ نفساً سمعته من الهاتف ثم قال:

. يوسف أبن خالتك عمل حادثة قوية..

. يوسف!!

مُنذ ثلاث سنوات.

. أيه يا ماهر أنت فين؟

. أنا في البيت يا أميرة.

. قدامك قد أيه وتوصل؟

. حوالي ساعة كدا..

كان ماهر قد عاد إلى منزله، بعد جلوسه على البحر ساعتين تتراكم الدموع داخل عينيه؛ فأغرق وسادته عندما عاد..

. أنا تقريباً هوصل قبلك، متتأخرش بقي هستناك.

. حاضر، سلام.

عندما أغلقت الهاتف معه، فتحتُ خزانة ثيابي المليئة بالثياب، وكالعادة الحيرة في ماذا سوف ارتدي؟، وهذا ليس درساً أو أنني ذاهبة مع صديقاتي بالخارج، بل أنني سوف التقي بماهر... أُريد أن يراني في أجمل صورة، أُريد ألا تقع عيناه على غيري، أُريد أن أكون ملكة جمال وهو أميري... وقفتُ أمام الخزانة أُفكر حتى انتشلت فُستانا أزرق؛ فماهر يعشق اللون الأزرق، أشكُ أحياناً أنه يُحب اللون الأزرق أكثر مني، حتى أنه لا يُجيد النوم إلا على الإضاءة الزرقاء الخافتة التي في غُرفته... ولكن عندما نتزوج لن يُجيد النوم إلا بين أذرعي!

ارتديتُ الفُستان، ارتديتُ حجابي أيضاً، وقفتُ أمام المرآة وأقولُ لنفسي:

. قمر يا بنتي والله ربنا يحميكي

في الحقيقة قلتها بصوت ماهر؛ فهو يُخبرني بها دائماً، ثم خرجتُ من المنزل مُدعية أنني لديّ درس أحياء، وصلتُ فعلاً إلى الكورنيش

قبله كانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، هاتفته؛ لم يجب المرة الأولي؛ فهاتفته مُجدداً وأجاب قائلاً:

. أيه يا أميرة أنا في الطريق أهو.

فقلتُ بلهفة على رؤيته:

. قدامك قد أيه؟

. حوالي ربع ساعة بالكتير

. تمام مستنياك يا حبيبي.

. مش هتأخر، سلام..

. سلام.

عندما أغلقتُ معه، وقفتُ أنظر إلى البحر بتمعُن، يُشبهه كثيراً في جماله، نسيم البحر يُشبه رائحة أنفاسه، عندما نتحدث سويا في الهاتف يكون معظم حديثنا صمت، ولكن رائحة أنفاسه كفيلة بأنْ تُطمئن قلبي... يُشبه البحر في هدوئه؛ فيكفي بأنْ تنظر إليه وتستمع إلى الموسيقى... وتأكدتُ أنه يُشبه البحر؛ لأنه من بعيد ليس عندما تقترب منه، و يا ويلي إذا غُصت في قاعه؛ فقاعه أجمل بكثير من قمته، وقمته أجمل بكثير من النظر إليه من بعيد... أعلم أن كثيرا من الفتيات غرقن فيه؛ ولكنه لم يُنقذ إلا سواي..

ثم التفتُ إلى الطريق أنتظر قدومه، أنظرُ في أوجه المارين جميعاً؛ فأراه في أوجههم، ثم أعود وأقول أنه ليس لهُ شبيه سوى البحر... ثم لمحته من بعيد وهو ينزل من السيارة، لوحتُ له بيدي؛ لكي يراني، ثم رآني وابتسم لي من بعيد، ولكن لاحظتُ وجهه الشاحب، ولاحظت سوادا تحت عينيه لم أعتد عليه من قبل... وعندما أتى صافحته وابتسم لي مرة أخرى، ولكن ما زال شعور غريب يُسيطر علي، أشعر

بأن خلف ابتسامته يخفي بُكاءه، يخفي حُزنه... فأمي أيضاً تتظاهر مثله كذلك!

ثم قال:

. عامله أيه؟

نظرتُ إليه وقلتُ:

. أنا تمام الحمد لله، أنت أيه أخبارك؟

. بخير..

هذا الرد أكد لي أنه ليس بخير... بخير دائماً خلفها أوجاع وآلام كثيرة...، صمتنا لحظات ونحنُ ننظر إلى البحر، ثم قلتُ:

. وحشتني أوي!

. وأنتي كمان وحشتيني..

قلتُ مازحة:

. مخدتش بالك من الفُستان يعني؟

فرد بنبرة تُطمئن قلبي:

. أنتي دايماً حلوة في أي حاجة يا أميره.

صمتنا مرة أخرى ثم قال:

. أميرة؟

. نعم يا قلب أميرة!

نظر إلى عيناي وقال:

. أنا أسف..

فقلتُ مُندهشة:

. على أيه!

. إحنا مينفعش نكمل مع بعض..

صُدمت!، لم أُصدق حديثه!، وقفتُ أنظر إلى عينيه في ذهول تام، وهو ينظر إلى عيناي، ثم قلتُ:

. أنت بتهزر صح؟، ده مقلب من مقالبك..

فرد بسرعة وقال:

. لأ يا أميرة!، ده مش مقلب...، إحنا لازم نسيب بعض.

دمعت عيناي وهبطت دموعي على وجنتاي...، ثم قلتُ بصوتٍ عالٍ:

. قصدك تسيبني...، ليه أنا عملت أيه؟، قصرت معاك في أيه؟، خنتك؟، كلمت غيرك؟، بصيت لغيرك؟، قولي يا ماهر أنا عملتلك أيه رد!!

كانوا الأناس ينظرون إلينا حينها؛ فصمت قليلاً ثم قال:

. أنا مش مرتاح معاكي...، وحاسس أني مش بحبك، فنسيب بعض دلوقتي أحسن ما نسيب بعض بعدين..

غضبت حينها وقلتُ:

. قول أنك أصلاً كنت بتلعب بيا!، قول أنك مكتفتش بوجودي وخنتني، قول أنك كداب، أناني، ومبتفكرش غير في نفسك، أنا كنت لسه بحكي للبحر عنك، كنت بشبه البحر بيك، أنما أنت مطلعتش بحر أنت طلعت مستنقع..، عشان كدا مكنتش عاوز تقول ليوسف!؟

صمت ولم يجب ونظر إلى الأسفل..

. رد عليا!، عشان كدا صح؟ عشان مبتحبنيش أصلاً ومش عاوز تخسر صديق عمرك... بس أنا هروح دلوقتي أقوله وهعرفه كل حاجه يا ماهر..

دلفت نحو البر الآخر من الطريق، توقعتُ بأنه سوف يذهب ورائي ولكنه لم يأت...، ثم فجأة جاءت سيارة بسرعة شديدة وأزالتني من على الأرض!!!

****

الفصل السابع

. يوسف ابن خالتك عمل حادثة قوية..

. يوسف!!

. أيوة وهو في العناية المُركزة دلوقتي..

كانت الصدمة على وجهي شديدة لم استوعب ما قاله أبي، وكأنني من فعلت تلك الحادثة ليس يوسف، تذكرت منذُ ثلاث سنوات عندما أتت سيارة بسرعة شديدة من بعيد ولا أتذكر شيئا سوى صراخي...، صمتتُ لحظات ثم قلتُ لأبي:

. ماشي أنا هركب حالاً واجي..

كعادته لم يتقبل ذلك وقال بصوت مرتفع:

. تيجي فين أنتي عبيطة!

ثم رددتُ عليه مُنفعلة:

. أيه اللي عبيطة!، ابن خالتي في العناية المركزة وبردو مش عاوزني اجي، أنت أيه مبتحسش خالص!

. أنتي بتكلميني أنا كدا!، طب ابقي تعالي وساعاتها انسي جامعتك دي خالص مفيش تعليم، هتقعدي في البيت وهجوزك لأول عريس يجيلك.

وبنفس انفعالي قلتُ:

. متقدرش أنت مش هتفضل حاكمني كدا حرام عليك بقي!، أنا جاية واللي تقدر عليه اعمله..

أغلقت المُكالمة وأخذت نفساً، كان يحمل الكثير من الكبت والمُعأناة التي كانت تُصيبني، لاحظ مازن انفعالي من زُجاج الغرفة؛ فخرج لي ووجدني أبكي... فقال:

. في أيه يا أميرة!، ردي عليا في أيه، أمك كويسة!

. ...

لم أجب، أمسك برأسي وجذبها إلى صدره وما زلت أبكي بشدة، وعندما توقفتُ أزال دموعي وأومئ على رأسي وقبلها قائلاً:

. خلصتي عياط؟

. أيوه..

. احكيلي بقي في أيه؟

صمتتُ لحظات قليلة ثُم قلتُ:

. يوسف أبن خالتي عمل حادثة...، وهو بردو مش عاوزني اسافر، بيقولي لو جيتي انسي انك ترجعي وهجوزك وكلام أهبل كدا، أنا قرفت يا مازن..

. طب أهدي كل شيء هيكون تمام...، مينفعش تبقي هنا طبعا وابن خالتك لا مؤاخذة في الكلمة يعني بيموت، لازم تسافري!

. أكيد...، أنا همشي دلوقتي أصلاً، مش هستني احجز اتوبيس ولا قطر مكيف، هركب القطر العادي، هدخل استأذنهم وامشي..

لم يكُن في بالي سوى يوسف، فقط يوسف وأنْ أراه وأبقي بجانبه إلى أن يكون بخير...، لم أهتم لحديث أبي عن دراستي، ولا أُبالي عما سيفعله...، فقط يوسف!

ثم قال مازن:

. هاجي معاكي لحد محطة القطر وابقي ارجع.

دلفنا نحوهم ومازالت آثار الصدمة على وجهي، نظروا إلي لأقول بصوت حزين:

. عن إذنك يا أم أمل، لازم امشي عشان مسافرة على إسكندرية ضروري..

. ليه في أيه يابنتي؟

لم أجب فأعادت أمل سؤال والدتها، رد مازن:

. ابن خالتها عمل حادثة..

فردت أمل بصوت عالٍ وصُدمت أكثر مما صُدمت أنا قائلةً:

. يوسف!!!

. ايوه!، عرفتي ازاي وعارفاه منين أصلاً!

فبلعت ريقها وقالت:

. أنتي حكيتيلي عنه قبل كدا، قولتيلي أنه كان بيقف جنبك وشخص كويس فاتصدمت..

. لا مفتكرش خالص أني حكيت لحد عن يوسف، أو ممكن ناسية عموما آه هو ولازم أمشي.

فقالت أم أمل

. خلي بالك من نفسك، ابقي طمني أمل عليكي عشان تطمني.

. حاضر، يلا سلام..

قال مازن:

. وأنا هوصلها وارجعلكوا.

وصلنا إلى محطة القطار، كانت الساعة السادسة إلا ربع، وأول قطار سيتحرك من الآن في تمام السادسة ونصف، قطع لي مازن تذكرة ثم وقف وقال:

. كان نفسي اجي معاكي إسكندرية، ويكون في ظرف أحسن من كدا..

فقلتُ:

. بإذن الله تسافر معايا مرة وهيكون في ظرف كويس..

. خدي بالك من نفسك، هستناكي ترجعي، ابقي كلميني في التليفون وطمنيني..

. حاضر، أنت خلي بالك من نفسك ومن أمل، سلام.

. سلام.

صعدتُ إلى القطار، جلستُ بجانب نافذة القطار كعادتي، أنتظرُ تحركه، تختلف لوعة الانتظار باختلاف الحدث الذي تنتظره، لو أنه حدث جيد سوف يجعلك سعيداً؛ ستشعُر بأنَّ الساعات لا تمر، عقلك لا يُريد أن يكف عن التفكير في ذلك الحدث، يطرح عليك تساؤلات كثيرة خوفاً من عدم اكتمال الحدث، ماذا لو أنك ذهبت ولم تجد ذلك الشيء الذي تنتظره... ماذا لو وجدته ولم يكتمل أو حدث أي شيء آخر فسد الحدث... تُحاول إقناع نفسك بأن كل شيء سيكون على ما يُرام، وأنْ تلك المخاوف ستفسد سعادتك، فيستقر بك الأمر بأن تنتظر فقط... أما عن الحدث السيئ مثل الذي أمُر به الآن، فالساعات تمر بسرعة ذلك القطار، وعقلك يبدأ بالتناقُض؛ فتارة يريد ألا تمر الساعات وأنْ يكون ذلك كابوساً ليس إلا... وتارة أخرى يُريد أن تمر وينتهي ذلك الحدث السيئ..

الشيء المُشترك بين انتظار الجيد والسيئ هو الخوف... في الأول تخاف ألا يحدث الجيد، وفي الثاني تخاف من السيئ نفسه... إذا استطعت أن تُسيطر على مخاوفك؛ فسوف يكون الانتظار سهلاً... ومخاوفك تلك سوف تزال وحدها عندما يتكرر الحدث كثيراً.

تحرك القطار أخيراً، وها هو ذاهباً إلى الأرض التي اشتقتُ إليها، إلى نسيم البحر تحديداً... إلى حي العجمي الذي نشئت فيه، ثُم قررت أن أنم لحين وصولي..

كنتُ أستند برأسي على النافذة ونائمة، عندما هزني أحدهم وقال :

. أميرة!

لم أفق من أول مرة، هزني مرة ثانية وقال:

. أميرة أصحي!

فتحتُ جفوني؛ فوجدته ماهر!!

. ماهر أنت أيه اللي جابك هنا!؟

أستند برأسه وراءه وقال:

. مسافر على إسكندرية زيك..

. معقولة الصدفة دي!!!

. شوفتي... من وسط 365 يوما في السنة ركبنا مع بعض في اليوم ده، ومن وسط 20 قطرا بيروح إسكندرية في اليوم ركبنا مع بعض القطر ده... ومن وسط عربيات القطر ركبنا العربية دي مع بعض، ومن وسط كراسي العربية قعدنا جنب بعض..

حينها قلتُ مازحة:

. لا على فكرة هما 365 يوما وربع... وبعدين أنت اللي جيت قعدت جنبي وصحيتني من أحسن نومة.

نظر إلى عيناي وقال:

. وحشتيني يا أميرة..

. ها... بتكذب زي كل مرة!

حينها نظر جانباً، وخلع نظارته الجديدة، وبكي بُكاء شديدا، ثم وضعت يدي على كتفه وقلتُ:

. ماهر أنت بتعيط؟

استمر في بُكائه وقال بصوت خافت:

. صدقيني كنت سبتك غصب عني... صدقيني يا أمل أنا بحبك، الظروف كانت بتحكمني، ضميري مكنش سمحلي أني أفضل معاكي... والله كنت بحبك ولسه بحبك، أنا كنت هنا في القاهرة بدور عليكي... ماشي ببص في وشوش الناس، كنت نفسي اشوفك... مش عارف أعيش من بعدك، قلبي من بعدك حزين أوي يا أميرة... أبوس أيدك أرجعي!

حينها أزلت دموعه وقلتُ مازحة أيضاً؛ لتهدئة الجو:

. طيب خلاص متعيطش، وبعدين لبست نضارة من بعدي عشان عيوني هما اللي كانوا بيخلوا نظرك قوي، مش كدا ولا أيه؟

نظر لي وألقي بنظارته أرضاً وقال:

. كدا!

نظرتُ إلى النظارة المُلقاة على الأرض؛ فوجدتها انكسرت من شدة السقوط، فقلتُ:

. رميتها ليه يا مجنون!

ابتسم وقال:

. عشان متأكد أن عيونك راجعين.

ابتسمتُ أنا الأخرى، اقترب مني لكي يُعانقني ونحنُ ننظر في أعيُننا..، ثم فجأة وجدتُ شخصاً يهزني ثانيةً ويقول:

. آنسه يا آنسه.

. ماهر!

. ماهر مين يا آنسه، أصحي وصلنا محطة مصر أخر محطة في الإسكندرية.

حينها فزعتُ قائلةً:

. إسكندرية؟!، يعني أيه، يعني كل ده كان حلم..

ثم خرجت من القطار وما زال الحلم يُراودني... أشعر وكأنني رأيته حقاً..، كم اشتقتُ إلى تفاصيل وجهه، اشتقتُ وهو لا يشتاق!...، ثم شممت رائحة نسيم البحر يأتي إلى هُنا، إلى محطة القطار، ها قد عدتُ إلى وطني الحقيقي، عدتُ إلى دياري... خرجتُ من المحطة أنظرُ حولي، ابحث عن السيارات، حتى ركبت سيارة تصل بي إلى حي العجمي كانت الساعة في تمام التاسعة والنصف، نويتُ أن أذهب إلى المستشفى وأطمئن على يوسف قبل نومي، أو قبل أي شيء.

تحركت السيارة وفكرتُ في الاتصال بأبي؛ لأخبره بأنني جئت، وأساله على عنوان المستشفى... ولكنني قلتُ في نفسي لا تخبريه بمجيئك إلا بعد أن تطمئني على يوسف... وقررتُ أن أهاتف خالتي أفضل.

أتصلتُ بها وأعطتني العنوان، المستشفى ليست بعيدة كثيراً عن منزلنا، وصلتُ بعد ساعة إلا ربع في الطريق، صعدت إلى الطابق الرابع مثلما وصفت لي خالتي، رأيتهم من بعيد في أخر الطرقة يقفون خائفين، يقرأون القرآن، يدعون... ذهبت إليهم وأول من رأتني أُمي؛ فركضتُ إليها مثل الطفلة وعانقتها عناقا طويلا... حقاً كنتُ أفتقد ذلك العناق، لأول مرة منذُ أن ذهبت إلى الجامعة أشعر أنني في أمان، أشعر بالراحة... فقط عناق أُمي القادر على ذلك الشعور!

ثم صافحت الجميع، ذهبت إلى خالتي عانقتها وقلتُ:

. مفيش أي مؤشرات أنه فاق!

قالت بصوت مرهق وحزين:

. لأ... أنا خايفة أوي يا أميرة، لو حصله حاجه أنا هروح وراه... يوسف مكنش بيعمل أي حاجه وحشة وأنتي عارفة... ليه كدا يارب هو ميستاهلش..

ثم عانقتني مُجدداً وبكت، فقلتُ لها:

. متقوليش كدا يا خالتو... يوسف هيكون بخير والله وهيقوم وهيرجع لحضنك، ده بس اختبار من ربنا ولازم تكوني قد الاختبار، لازم نصلي وندعيله يقوم بخير، لازم نستقوي..

. يارب يقوم بالسلامة..

ثم ذهبت إلى أمي مرة أخرى ووقفت بجانبها وقلتُ:

. وحشتيني أوي يا ماما..

. وأنتي كمان يا بنتي وحشتيني أوي... البيت في غيابك وحش أوي!

ثم أكملت وسألتني:

. متصلتيش بيا ليه قولتيلي انك جاية؟

. أنا اتصلت عليكي حوالي ست مرات الصبح وأنتي مردتيش؛ فرنيت على ابويا وقولتله..

. وقالك أيه!؟

. ....

فهمتني أُمي من دون أن أتحدث، صمتت لحظات ثم قالت:

. متقلقيش ومتزعليش منه..

. مش زعلانة، المهم أخواتي عام...

قاطع حديثنا الطبيب وهو يقول:

. ابنكوا فاق!!

الجميع ركض إلى الغُرفة ولكن الطبيب أوقفهم وقال:

. مينفعش كل ده يدخل هما اتنين بس!

قالت خالتي:

. أنا أمه هدخل أنا وأميرة..

اتجهت نحوها ودلفنا سويا إلى الغرفة، أمسكت بيدها وكأنني أُطمئنها، وبكينا عندما رأيناه، ثم بدأنا في الإشارة بيدينا إليه والطبيب معنا يلوح بيده هو الآخر، ثم قالت:

. يوسف أنا أمك يا حبيبي... أنت شايفني

لم يجب، فقال الدكتور:

. يوسف شايفنا؟

لم يجب أيضا، فقلتُ:

. يوسف إحنا هنا جمبك...، أنا أميرة...، أنت هتكون كويس يا حبيبي..

حرك يوسف رأسه قليلاً ثم تحدث أخيراً وقال:

. أنا فين؟

فابتسمت أمه وقالت:

. أنت في المستشفي يا حبيبي، حادثة بسيطة والحمد لله ربنا عداها على خير..

ثم سألها سؤالا غريبا!:

. مستشفي أيه، أنتي مين!!!

***

الفصل الثامن

. مستشفي أيه، أنتي مين!!!

خفقت قلوبنا جميعاً عندما نطق بتلك الجملة، ردت أمه:

. أنا أمك ياحبيبي...، زي ما قولتلك أنت عملت حادثة ونقلناك هنا، بس الحمد لله أنت فوقت أهو وبقيت بخير!

نظر إلى أُمه نظرة اندهاش وقال:

. حادثة أيه؟، أنا بحلم ولا أيه؟، انتوا مين؟، ده كابوس؟، حد يرد عليا..

حينها بكت أُمه وأنا حاولت أن أتماسك، ولكن هل الذي في بالي صحيح!، ثم قلتُ:

. يوسف يا حبيبي، أنا أميرة بنت خالتك، أنا أميرة اللي كنت بتديني كتب علطول اقرأ فيها، نقعد سوا نهزر، تجيب ليا ورد وتقعد تتغزل فيا...، مش فاكرني؟

نظر لي وحاول تذكر شيء، ثم قال:

. والله ما فاكرك، مش فاكر حاجة!، يا دكتور فهمني في أيه!

فأزاحنا الدكتور بيديه وقال:

. طيب يا جماعة اتفضلوا برا دلوقتي على ما يهدي..

فقالت أمه بصوت عالٍ أثناء خروجنا:

. يابني أنا أمك، يابني متقلقنيش عليك أنا أمك..

أعادت تلك الكلمات كثيراً حتى سمعها أقاربنا..، ركضوا نحونا بينما هي جلست على الأرض تبكي، فجلستُ بجانبها أُحاول تهدئتها وأقول:

. اهدي يا خالتو والله هيكون كويس...، أهدي متعيطيش وامسحي دموعك ارجوكي..

تجمعوا حولنا والجميع يتساءلون:

. في أيه!!!

لم تجب ولم أجب أنا الأخرى، ثم قالت أمي:

. في أيه يا أميرة قوليلنا!؟

صمتتُ لحظات ثم قلتُ بصوت مرتجف:

. فاق..

لم أكمل حديثي فقالت:

. طب الحمد لله!، اختي بتعيط ليه!

. يوسف مش فاكر حاجه...، عمال يسأل احنا فين وهي مين وأنا مين...، ربنا يستر..

المشهد كان في مُنتهي البؤس بعد تلك الكلمة...، منهم من سقط أرضاً بجانبنا ومنهم من أستند علي الحائط خشية من السقوط، الصمت عم في المكان..!

حتى كسر صمتنا الطبيب وهو خارجاً من الغُرفة، تقدم إلينا وقال:

. المريض حالته مش كويسة خالص...، ومش فاكر أي حاجة!

فقالت أُمه:

. يعني أيه يا دكتور؟!

. يعني حصله فُقدان ذاكرة أثر الاصطدام!

. فقدان ذاكرة، لا يا دكتور ابني كويس أنت بتقول أيه!

. خليكوا مؤمنين أنه ممكن يفتكر كل حاجة في أي وقت... الإيمان أهم شيء، بعد أسبوع بإذن الله هيقدر، يخرج معاكوا.

كانت كلمات الطبيب تهبط على قلوبنا جميعاً كالحجارة... الجميع لا يُصدق!، الجميع يبكي وكأنه توفي، أُريد أن أصرخ في أوجههم، أُريد أن أُخبرهم أنه سيكون بخير، أُريد أن أُزيل دموعهم جميعاً... الألم والحزن على فُقدان ذاكرة يوسف كبير... ولكن الله أكبر من كل شيء!... الله يستطيع أن يُعيد إليه ذاكرته... لو أن العالم ظالماً فالله عادلاً، لو أن الدُنيا قاسية علينا فالله رحيمٌ بنا..

قلبي ينشق نصفين كُلما نظرت إلى خالتي... عقلها يطرح تساؤلات كثيرة... كيف سيعيش معها؟، كيف سيُصدقها؟، هل سيقول لها "أُمي"؟!

هل سيُقبل يديها كل يوم مثلما كان يفعل؟، هل سيبتسم؟، هل سيُحب طعامها؟... وكأنها تبني بناء جديدا بعد هدمه!، بينما أنا أُفكر في ليالينا سوياً أنا وهو... السهر، الكتب، القهوة، ابتسامته، عينيه، كلمة أميرة بصوته... سوف يقولها بعد الآن وهو مُندهشاً من هي أميرة!، عندما أنسى تفاصيل ذكري مُعينة؛ يُصيبني الحُزن، ما بال الشخص الذي قد نسى جميع ذكرياته، وكأنه حديث الولادة من بطن أُمه... لقد نسى الجميع، نسى موهبته، نسى ماذا يُحب، ماذا يكره، نسى حتى كيف فقد ذاكرته..

أتذكر حديثنا منذُ ثلاث سنوات بعد حادثتي بفترة..

. أميرة؟

. نعم يا يوسف؟

. عارفه، أنا مش برتاح لحد غيرك في قرايبي أو في الدنيا كلها عموماً، أنتي اللي بتفهميني بس فيهم... الكل مش فاهم ليه يوسف انطوائي شوية، مش فاهمين اني بحاول اكون اجتماعي اكتر، بس مش برتاح غير في اوضتي، بكون فرحان وأنا بكتب، وأنا بين الكتب اللي بتونسني، أنتي بس اللي عارفة أيه بيفرح يوسف، أيه بيزعله، أيه بيضايقه... أنا لو نسيت الدنيا كلها مش ممكن انساكي ابداً يا أميرة!

ستنساني يا يوسف؛ أحيأنا يكون النسيان ليس بيدينا.. لا نملك حق التذكر لطالما تعلق الأمر بالقدر..

***

مُنذ ثلاث سنوات

بعدما صدمتني السيارة؛ لم أشعر بأي شيء حولي... فقط رأيت الأناس يركضون نحوي، أخر شيء وقعت عليه عيناي ماهر وهو يركضُ بشدة، ثم أُغلقت عيناي... ولكن قبل أن تُغلق وأثناء نظرتي إليه تمنيت شيئين افتراضاً بأنني لن أعيش أكثر من ذلك، كان التمني الأول أن يكون ذلك كابوساً... وإن لم يكن كذلك فتمنيتُ أن يُسامحه الله..

كنتُ مُلقاة على الأرض، الموت بيني وبينه خطوات... أتوا الأناس وحملوني مع ماهر ووضعوني في السيارة التي اصطدمت بي، كان يضع رأسي على فخذيه ويبكي بينما أنا فاقدة الوعي تماماً... يُملس بيده على رأسي يقرأ القرآن، يُتمتم قائلاً:

. أميرة خليكي جنبي والنبي، أنا أسف، يارب أنا السبب خدني أنا وسيبها هي، يارب هي معملتش حاجه وحشه، أنا السبب، انقذها يارب، أميرة أنتي هتقومي وهتكوني بخير والله... غصب عني والله، مكنتش

عاوز اسيبك أبداً، أنتي روحي يا أميرة، أنا من غيرك ولا شيء، يارتني كنت قولتلك في التليفون احسن... يارتني ما كنت قولتلك خالص، أميرة قومي... أنا هفضل جمبك ومعاكي بس قومي!

وصلنا إلى المشفى، تركني ماهر داخل السيارة وركض إلى الداخل يصرخ في المستقبلين ويقول:

. عاوزين نقالة بسرعة!، في واحدة بتموت برا ارجوكوا!

. طب أهدى يافندم هي فين!

. برا في العربية، بسرعة ارجوكوا!

. الممرضون هييجوا وراك حالا

ثم عاد لي وجاءت خلفه النقالة، وضعوني عليها بحرص ويركضون بها إلى غُرفة العمليات الجراحية..

دخلتُ الغُرفة وحاول ماهر أن يدخل معي ولكن أزاحه الطبيب قائلاً:

. مينفعش تدخل، خليك برا ارجوك.

أنتظر بالخارج، أمسك بهاتفه وسُرعان ما أتصل بيوسف، لم يجب أول مرة، أتصل به ثانياً وهو يقول:

. رد عليا بقي يا يوسف!

أجاب يوسف وقال:

. أيوة يا ماهر معلش كنت ب...

. يوسف أميرة عملت حادثة، تعالي على مستشفي عبد المنعم جابر بسرعة!

. حادثة!!!!، أنا جاي حالاً!!

ماهر بالخارج يبكي ويدعي الله، ما زال يُتمتم بكلماته لي التي قالها في السيارة..

حتى جاء يوسف إلى ماهر وركض نحوه ينهج من الركض، سند بيده على كتفه وقال بصوت متقطع:

. في أيه يا ماهر!

. ...

. رد عليا في أيه!!

أجاب ماهر وهو يشعر بذنب شديد:

. اتقابلنا وقولتلها احنا لازم نسيب بعض وفهمتها أني أنا مش بحبها..

. وبعدين!

. سابتني ومشيت وهي ماشية خبطتها عربية..

ضرب يوسف بيده على الحائط وقال بصوت عالٍ:

. ليه عملت كدا!، ليه سبتها تمشي!

. أنا عملت كدا عشان متكرهكش أنت وتعرف أن أنت اللي بعدتنا عن بعض...، أنا عملت كدا عشان مكنش ينفع اقولها ابن خالتك قالي بطل اللي بتشربه واوعدك أنها هتكون ليك، أنا عارف اني غلطت والذنب بيموتني يا يوسف..

صمت يوسف وأستند بظهره على الحائط وقال:

. الله يلعن الحب يا اخي!، مكنش وقته يا ماهر..، مكنش وقته خالص..

خرج الطبيب إليهم وقال:

. لازم نعمل عملية، جالها ارتجاج في المخ وكسور كتير ولازم نعمل عملية حالاً، هي بين الحيا والموت..

رد يوسف وقال:

. طيب يا دكتور أعملها!

. لازم تروحوا تدفعوا الفلوس في الاستقبال..

. يا دكتور حاضر والله هندفع أوعدك، أنت اعملها واهلها هييجوا حالاً يدفعوا..، ارجوك يا دكتور البنت بتموت!

. تمام..

نظر يوسف إلى ماهر وقال:

. لازم اتصل بخالتي، مش عارف هقولها أيه دي ممكن تروح فيها..

ما زال ماهر صامتاً، قلبه ينزف آلماً لا يتوقف، يدعي بأنْ يُنقذني الله، ثم قطع صمته وقال:

. أميرة مينفعش تروح وتسبني يا يوسف، أنا السبب هموت وراها..، العربية خبطتها قدام عيني، يارتني مسكت في ايديها وقولتلها متمشيش، يارتني حضنتها، يارتني ضحكت عليك وقولتلك هبعد ومكنتش بعدت، يارتني ما كنت شربت أي حاجه من الاول خالص، يا يوسف أميرة لا، أميرة ملاك مينفعش تروح..، قولي أنها هتفضل..

قال يوسف:

. مش وقته الكلام ده يا ماهر أنا بموت اكتر منك، ميت من الخوف عليها...، أنا هتصل بأمها عشان ييجوا ونشوف موضوع الفلوس ده، أنا لو معايا كنت روحت جري جبتهم وجيت..

رد ماهر بجدية:

. أنا هتصرف، هروح اسأل كام الفلوس وهتصرف..

. لازم أهلها يعرفوا بردو زمانهم ميتين من القلق عليها...، استني هتصل بيهم!

اتصل ماهر بأمي، ردت وقالت:

. أيوة يا يوسف؟

وضع يوسف يده على قلبه وقال:

. خالتي...، أميرة خبطتها عربية جامد وهتعمل عملية إحنا في مستشفي عبد المنعم جابر...

***

الفصل التاسع

. أميرة وعملية، أنت بتقول أيه يا يوسف، بنتي مالها!!!

. زي ما بقولك كدا يا خالتي، تعالي مع عمي وهتفهمي كل حاجة..، محتاجين فلوس العملية هنا هاتى معاكي خمس تلاف جنيه..

. أنا جاية حالاً!!

الساعة العاشرة والنصف مساء، ما زالا يجلسان على أرضية الطُرقة، ماهر يُسيطر عليه المشهد، عندما صدمتني السيارة وكأنها قد صدمت قلبه؛ فسقط أرضاً يصرخ من الألم... عينيه تُهطل دموعا بغزارة، لا تتوقف، لا تنقص، بل تزيد كُلما مر الوقت..

أما عن يوسف فمازال يُحاول أن يُصدق الأمر، يُحاول إقناع نفسه أنه ليس في كابوسٍ، يُحاول أن يكون ثابتاً، يدعي الله من صميم قلبه أن تمر تلك الحادثة على خير، يتحرك في أنحاء الطُرقة كلها مُنتظراً أُمي...، يعلم جيداً أنها عندما تأتى ستمتلئ الطُرقة بصُراخها، يوسف يكره الصُراخ، حتى في الموتِ يكرهه، ولكنه يعرف أن ذلك الصُراخ آتٍ من حريق قلب الشخص الصارخ، هُناك أناس ليس بإمكانهم السيطرة على آلام قلوبهم، وفي تلك المواقف يُخرجون الآلام على هيئةِ صُراخ...، حتى وإذا كان مُحرماً في الموتِ... ها هي أُمي أتت من بعيد ومعها أبي، تصرخ وتقول:

. في أيه يا يوسف!، بنتي مالها يا يوسف!!

كان يوسف يُجهز الرد من قبل أن تأتى، فقال:

. بنتك كويسة يا خالتي... متقلقيش والله هتكون بخير، حادثة عربية خبطتها بس هي هتكون تمام..

بالتأكيد لم يرتح ولم يهدأ قلب أمي أبداً، فقالت:

. مين اللي خبطها، حسبي الله ونعم الوكيل فيه، يا حبيبتي يابنتي..

ثم قال أبي:

. هي فين دلوقتي؟!

. في غرفة العمليات..

صمت أبي لحظات ثم قال:

. الدكتور قال أيه؟

. كسور وارتجاج في المخ..

كانت الدموع في عين أبي ترفض الهبوط... تمنيتُ أن أرى أبي حينها، أرى وجهه هل تغيرت ملامح القسوة تلك؟..، هل خانته دموعه وبكى؟، هل ذهب لإحدى المساجد وبكى بين يد الله ودعا لي بأنْ أكون بخير؟، هل كان يشعر أن المنزل يفتقد وجودي؟، هل أشتاقَ لنبرة صوتي؟، هل كان يُريد مُعانقتي حينها؟..؛ ليُخبرني أن الذي يفعله خوفاً عليَّ، أن تنطق شفتاه بقول أُحبك يا أبنتي..!

ثم نهض ماهر من مجلسه في الطُرقة وقال:

. متقلقيش يا أم أميرة... هي بأذن الله هترجعلكوا كويسة مفيهاش أي حاجة..

كانت أمي تعرف ماهر جيداً، ولكن الدموع لم تسمح لها برؤيته جيداً، فقالت له:

. أنت مين؟!

. أنا ماهر... صاحب يوسف من زمان، أنتي عرفاني.

فأزالت أُمي دموعها ورأته، ثم قالت:

. أيوة عارفاك...، يارب يابني.

نظر إليه أبي وقال:

. وأنت عرفت ازاي بالحادثة؟

صمت ماهر...، لأول مرة لا يعرف ماذا سيكذب؟، ماذا سيقول له...، هل يُخبره أنه السبب في كل ذلك!!

فرد يوسف وقال:

. ماهر شغال قصاد مكان الحادثة يا عمي، لما خرج لقاها أميرة هو اللي جابها وقالهم أنها قريبته، وهو اللي اتصل بيا عشان اجي..

فقال أبي:

. شكراً يابني..

أنقذه يوسف من تلك الورطة، حمد ماهر ربه في سره، لو كانا عرفا الحقيقة لكان هو الآخر بين الحياة والموت مثلي..

مرت خمس ساعات وأنا بالداخل...، بين الحياة والموت، لا أشعر بشيء ولا أري شيئا...، يُحاولون الأطباء إنقاذي، ومازالوا أقاربي بالخارج يزدادون...، الجميع يأتي ويُكرر ذلك السؤال:

. أميرة مالها!

ثم وقف يوسف وماهر وقال يوسف لأبي:

. أنا خارج أجيب عصير وأي حاجه نأكلها، أجبلكوا معانا؟

نظر أبي إلى أمي، فقالت فوراً:

. مش هاكل أي حاجة ولا هشرب حاجة غير لما أطمن على أميرة الأول..

قال أبي نفس الشيء فخرجا.، أثناء عودتهم قال ماهر:

. تفتكر هتكون كويسة وربنا هينقذها..؟

. قلبي حاسس أن مفيش حاجة هتحصل، أميرة معملتش حاجة غلط عشان تموت الموتة دي...، ربنا أكيد بيختبرها وبيختبرنا بس احنا ندعيلها

. أميرة لو حصلها حاجه يا ماهر أنا هموت...، يارب أنقذها وأنقدنا..

ثم مرت ثلاث ساعات أخرى وأخيراً بعد انتظار حوالي عشر ساعات، خرج الطبيب فركضوا نحوه جميعاً، فقالوا في نفسٍ واحد:

. أميرة كويسة يا دكتور؟!

قال بهدوء:

. الحمد لله العملية نجحت وحالتها دلوقتي مستقرة.

فقال الجميع أيضاً:

. الحمد لله يارب

ثم عاد الدكتور وقال:

. هي أكيد مش هتفوق حالياً، بس أول ما تفوق هنديكوا خبر أكيد، مينفعش بقي كل ده يفضل هنا انتوا اطمنتوا عليها أهو...، الفلوس دفعتوها؟

فقال أبي:

. أيوة دفعناها في الاستقبال، شكراً يا دكتور..

. الشكر لله.

أطمئن قلب الجميع، أمي جلست تحمد الله، وأبي كذلك، وأقاربي أيضاً، وعانق ماهر يوسف... ذهبوا أقاربي إلى منازلهم، وبقي أبي وأمي ويوسف وماهر أيضاً، ثم بعد نصف ساعة أذن الفجر فخرجوا الثلاثة؛ ليصلون ويشكرون الله، ويدعونه بأن أفق في أقرب وقت..

***

الآن.

بعد يومٍ عصيبٍ مر علينا جميعاً، غدونا فيه أكثر يأساً؛ بعدما علمنا بأنَّ يوسف قد فقد ذاكرته... كانت الساعة السادسة صباحاً، جميعنا هُلكنا من ذلك اليوم المرهق، تغفوا جفوننا لحظات ثم نستفيق على صوت أحد، المشفى كانت مُفعمة بالصمت... حتى جاءت أُمي وقالت لي بصوتٍ مُنخفض:

. يلا عشان نمشي.

نظرتُ إليها وقلتُ:

. هنمشي نروح فين؟!

. هنروح البيت، خالك هيوصلنا؛ عشان أجهز إخواتك الصغيرين لمدرستهم، وتروحي ترتاحي بقي شوية وتنامي، أنتي جاية من سفر على هنا..

. طب يالا ياريت... أنا هموت وأنام أصلاً!

ركبنا السيارة مع خالي وكانت بجانبي أُمي، أثناء الطريق وضعت يدها على يداي وقالت:

. تعرفي أنك وحشاني أوي يا بنتي..

شعرتُ بأنني أنا أُمها وهي طفلتي، ليس العكس... كانت تتشبث بأصابع يدي بشدة، وكأنها تُرسل رسالة من خلال الأصابع فتقول: "لا تهجريني مرة أخرى، كم أن هجرك يقتلني يا عزيزتي... حتى وأن كان ليس بيدك، فأنا مُتعلقة بكِ، كتعلق الطفلة بأمها... حتى وأن كنتُ أنا أُمك، ولكنني أمام أعيُنكِ طفلة لم تتخط العامين!"

ثم اتكأتُ على كتفها وقلتُ:

. وأنتي وحشتيني أوي يا أجمل أُم في الدنيا!

صمتنا قليلاً ثم عاودت حديثها، فقالت بنبرة صوت حزينة تميل إلى الحنان:

. البيت من غيرك ملوش لازمة يا أميرة..

علي الرغم من قصر تلك الجملة ألا أنها تُعبر عن ألف معنى، وكأنها تقول البيت من دونك يا ابنتي كبيت الشعر من دون القافية، كالمسجد من دون البساط الذي يصلون عليه، كالأشجار من دون أوراقها الخضراء، كفلسطين من دون الأقصى... لو تعلمين يا أُمي كم المُعاناة التي تعيشها ابنتك هُناك، لو تعلمين كم الاشتياق إلى ذكريات منزلنا... إلى آذان الفجر يتسلل من الهاوية، إلى زقزقة العصافير صباحاً، إلى الإفطار الجماعي على مائدة واحدة، إلى إخوتي الصغار وإزعاجهم لي، حتى إلى صراخك لكي أُذاكر... كل شيء يتعلق بالمنزل أنا مُشتاقة إليه، إلى غُرفتي وكتابات يوسف على جُدرانها، إلى سريري المُريح، إلى وسادتي التي مُجرد أن أضع رأسي عليها؛ أنام سريعاً دون تفكير كثيراً... الغُربة تأكل في جسدي يا أُمي، تُبعثر لمعان عيناي، تسرق مني ابتسامتي التي تخرج من صميمِ قلبي..

ثم قبلتُ يديها وقلتُ:

. أنا خوفت أوي يا ماما لما أنتي مردتيش عليا إمبارح... أنا متعودة أني أصحي على صوتك، صوتك هو اللي بيصبرني في الغربة، صوتك هو اللي بيديني طاقة أني أستحمل، صوتك بيحسسني بالأمان حتى وأنتي بعيدة عني... أرجوكي متحرمينيش من صوتك أبداً!

. حاضر يا أمل.

شعرت بي، بخوفي عليها، بوحدتي من دون صوتها؛ فأخذتني بين أحضانها وقبلت رأسي، وقالت:

. متخافيش أنا جمبك دايماً..

ثم وصلنا إلى المنزل، نزلنا من السيارة، نظرتُ إلى المنزل باشتياق شديد، وكأنني أُريد أن أركض وأُعانق جدرانه فرحاً برؤيتي له... يحمل ذكريات لن ولم أنساها أبداً، ثم فتحت أُمي باب المنزل ودلفنا داخل المنزلَ، كان أبي مُستيقظاً، وعندما رآني مع أُمي، نظرتُ إليه وابتسمت، قال فوراً:

. أنا مش قولتلك متجيش؟!

يا إلهي ما هذا الأب... كنتُ أظن أنه سيُعانقني وأنَّ حديثه معي في الهاتف كان مجرد تهديدا ليس أكثر، ثم عاود الحديث فقال:

. بردو كسرتي كلمة أبوكي وجيتي!

. يا بابا أنا قولتلك مينفعش افضل هناك وابن خالتي بين الحياة والموت!

احمر وجهه وزاد غضبه، فحاولت أُمي تهدئة الأمور فقالت:

. خلاص يا حاج هي جاية تطمن على ابن خالتها وهتمشي بكرة مش هتقعد..

فنظرت إلى أُمي وقلتُ:

. أنا مش همشي غير لما يقوم ويكون كويس!

فاقترب مني بسرعة وصفعني بكل قوة... لم أشعر بوجع ضربته مثلما شعرت بوجع قلبي حينها... نعم ليست المرة الأولي، وبالتأكيد لن تكون الأخيرة، ولكن مع كل هبوط ليديه على وجنتاي تزداد حجم كراهيتي له، لقد سئمت من تلك المُعاملة، كُلما تقدم عمري أقول إن معاملته لي سوف تتغير، أنه سوف يُعاملني مُعاملة الابنة الكبرى، أنه سوف يحترم ابنته التي عانت في أعوامها الفائتة منه... ولكن لا جدوى مهما بررت له... ثم قال بنفس نبرة الغضب:

. مش أنتي وقعتي كلمتي وجيتي؟، اقعدي بقي في البيت مفيش دراسة، مفيش جامعة تاني، وأول عريس هيجيلك أنا هقبله واخلص منك بقي جتك القرف، استحملي بقي اللي هيحصلك..

لم أكن أُركز ولا أهتم بحديثه كثيراً، فقط مصدومة من استقباله لي وضربته، لقد وصل إلى أقصي مراحل القسوة... ثم دخل إلى غُرفته، حاولت أُمي تهدئتي ولكنني دلفت نحو الباب وأُمي تركض خلفي وتقول:

. أميرة يا أميرة ارجعي هتروحي فين!

ثم فتحته وخرجت من دون أن أنطق بكلمة، دون أن أعلم إلى أين أنا ذاهبة... وأُمي تنادي علي ولكنني أركض بسرعة، أمي شعرت بالتعب فوقفت، وأنا أكملت سيري في الشوارع، هاتفتني كثيراً ولم أجب، ثم قررت الذهاب إلى مكاني المُفضل، أو مكاننا المُفضل... أنا وماهر، في مكان كنا نجلس فيه دائماً على الكورنيش أمام البحر..

***

الفصل العاشر

ذهبتُ إلى ذلك المكان، تمنيتُ لو أنه جالسا الآن... يتذكر جلوسنا هُنا، يتذكر مُشاركة أُذننا للموسيقى، يتذكر ملامحي وهي تبتسم عندما أكون معه، يتذكر كل شيء... ولكن هل هو حقاً يتذكرني مثلما أتذكره كل ليلة، ساعة، دقيقة، ثانية!، هل أنا محور أحلامه مثلما هو يزور أحلامي كل يوم؟، هل قلبه ذاب من الاشتياق مثلما ذاب قلبي؟، هل لديه أمل بأن نعود مثلما أنا لدي أمل... ولن أفقد ذلك الأمل إلا حينما أراه يضع خاتم الزواج في يد أحدهم... لن أفقد الأمل رغم تحطم قلبي وهو السبب في تحطمه، لن أفقد الأمل في عودته إلى وطنه، إلى حضني... نعم كان يُشبه حضني بالوطن، ولكنني أعتقد أنه كان مجرد ملجأ وهو يتيم في الحُب؛ فتربى في ذلك الملجأ، ثم هرب من ملجأه وما زلت أنتظر عودته... لو أنه موجود الآن كنتُ سأخبره عن أبي وقسوته، وهو كان سيتقمص دور الأب الثاني فيُعانقني ويقول:

. أنا هنا، أنا جمبك، أنا أبوكي وبصالحك بعد ما ضربتك... متزعليش مني، أنا بقسي عليكي عشان بحبك وخايف عليكي..

نعم كان يقول تلك الكلمات لي دائماً، كان يُريد أن تتحسن علاقتي بأبي، عندما تدخل ذرة كراهية تجاه أبي في قلبي، كان هو ينتشلها..

فأين هو الآن؛ لينتشل كل تلك الكراهية؟!

دموعي المُتراكمة في عيني ها هي تزرف... لقد سئمت من كثرة الأسئلة التي أطرحها عليك دائماً يا أبي بداخلي، لماذا كل تلك القسوة؟، لماذا تترك غضبك يُسيطر عليك؟، لماذا لا تأخذني بين أحضانك بعدما تقسو عليَّ؟، لماذا لا تعتذر عن قسوتك؟، ألم تيأس من مُعاملتك تلك؟، ألم تثق في أولادك بعد؟، ألم تُريد مُعانقتي بعد؟...

أسئلة كثيرة لا أجد لها غير إجابة واحدة... أنه قدر من الله ويجب أن أتقبل قسوته وعدم عطفه، لا يا أبي مهما فعلت لن أكرهك... صدقني أنا أُحبك ولستُ أكرهك!

مسحت دموعي ووقفتُ أنظر إلى البحر، آه يا إسكندرية كم أشتاقُ إليكِ، ذهبتُ بعيداً رغماً عني، لم يكن الأمر باختياري... فأنتِ تعلمين كم تعنينَ إلى أميرة، نعم ذكرياتك لا تُفارقني أبداً، كما لو أنك أُمي... مجرد المجيء إلى هُنا أشعر، بأنني قد عانقتك للتو، ونسمات هوائك كأنفاس أُمي، كلاكما كالمسك في رائحتكما... أود أن أظل هُنا دائماً، أبني كوخاً من الخشب على شاطئك، نعم كان حلماً من أحلامي أنا وماهر... أن نعيش في كوخاً، نستيقظ من النوم على نسمات هوائك الرائعة، نركض وراء بعضنا، وإذا أمسك أحد بالآخر يُقبله، كنت سأتركه يمسك بي؛ لكي يُقبلني... ننزل البحر سوياً ونغرق بعضنا بالماء، نسهر أمام منظر البحر الجميل

وأُعانق ما هو أجمل من البحر، أُعانقه... هل ذهب ذلك الحلم هباء؟، أم أنه لم يذهب بعد وما زال قائماً؟...

وأثناء مدحي في إسكندرية، وتذكري لماهر وجدت هاتفي يرن، أنها أمي تُريد أن تطمئن عليَّ، سوف أجب هذه المرة وأُطمئنها، فقد تحسنت حالتي الآن قليلاً..

. نعم يا ماما؟

تنهدت وكأن قلبها ارتاح عندما سمعت صوتي، فقالت:

. مبترديش عليا ليه يا بنتي؟

. كنت زهقانة من اللي حصل... ومكنتش عاوزة أكلم حد بس أنا دلوقتي أحسن متقلقيش.

. طب أنتي فين؟

. أنا ع...

لم أُكمل الكلمة؛ لأنني لمحتُ شخصاً يُشبه ماهر كثيراً في سيارة زرقاء اللون يقودها، هل هو حقاً!، ثم قاطع تفكيري أمي وهي تُعاود سؤالها:

. أنتي أيه، أنتي فين يا، أميرة!

فقلتُ لها وأنا ما زلت أُفكر هل هو أم لا:

. يا ماما متقلقيش والله، أنا عند واحدة صاحبتي، هقعد معاها شوية وهرجع، متقلقيش أنا كويسة..

. طيب خلي بالك من نفسك، هستناكي ترجعي البيت متتأخريش، سلام يابنتي..

. حاضر يا ماما، سلام.

سيارة زرقاء؟، نعم هو يُحب اللون الأزرق..، نفس ملامحه ولكن لمحتُ بأن ذقنه قد نمت كثيراً، يا الله أنت تعرف كم اشتقتُ لرؤيته..، أجعلني أراه وأقف أمام عينيه ولو لصدفة قبل أن أرحل إلى القاهرة..، لم أهتم لحديث أبي بأنني لن أستكمل دراستي، فذلك حديث وقت غضبه فقط وأنا مُتأكدة من ذلك الأمر، ثم وجدت هاتفي يرن مُجدداً فخفقتُ ظناً أنها أمي وما زالت قلقة، ولكنني وجدت مازن؛ فأجبت عليه فوراً وقلتُ:

. مازن عامل أيه؟

فوجدت نبرة صوت أمل هي من تتحدث:

. لا أنا مش مازن أنا زوجة مازن.

فضحكتُ وقلتُ:

. طب إديني جوزك يا أمل.

فضحكت هي الأخرى وقالت:

. عاملة أيه يا حلوة؟

. أنا تمام الحمد لله، أنتي عاملة أيه وأمك أخبارها أيه؟

. بخير الحمد لله، يوسف كويس؟

فقلتُ بنبرة حزينة للغاية:

. يوسف فقد ذاكرته..

فوجدتها مُندهشة من الأمر، فقالت:

. بتقولي أيه!، ازاي!، بتتكلمي بجد!!!

فاندهشتُ من دهشتها، وكأنها صُدمت أكثر من صدمتي أنا... فقلتُ:

. أيوه للأسف.

فقالت لمازن هو كان بجانبها، ثم أعطته الهاتف فقال:

. ربنا يصبركوا يا أميرة.

. يارب يا مازن... أنت كويس؟

فتنهد وقال:

. آه أنا كويس إحنا في الجامعة دلوقتي أنا وأمل، قولنا نكلمك قبل ما ندخل المحاضرات... أنتي هتيجي أمتي؟

فأخبرته عما دار بيني وبين أبي، فأخبرني أن كل شيء سيكون على مايرام، وأنه ينتظرني هو وأمل؛ لكي يكتمل المُثلث المضحك، فقلتُ له:

. بأذن الله هحاول متأخرش هنا.

. ماشي يا أميرة، يلا سلام

. سلام.

ثم جلست قليلاً أُفكر مُجدداً في ماهر والسيارة وذقنه...، ثم قررت عدم الذهاب إلى المنزل، والعودة إلى المشفى التي بها يوسف..

ذهبتُ إلى المشفى، كانت الساعة التاسعة تقريباً، لم أجد غير خالتي وشابا غريبا، وجهه يشع نوراً، ولحيته كانت كبيرة نوعاً ما، وكان يرتدي جلباباً أبيض، وقف فوراً عندما رآني، صافحني بيده، ثم قال:

. أنتي أميرة صح؟

تعجبتُ!، من أين يعرف اسمي...، فقلتُ:

. أيوة أنا أميرة، أنت تعرفني؟

فنظرت خالتي لي وقالت:

. مش فاكراه؟، هتبقي أنتي ويوسف فاقدين الذاكرة!

ابتسمت وقلتُ:

. لا والله ما اعرفه ولا شوفته قبل كدا، مين!!

فقال ذلك الشاب:

. أنا إبراهيم، إبراهيم أبن خالتك، أخو يوسف.

فنظرتُ إليه في ذهول... هذا ليس شكل إبراهيم، لم يكن يملك ذلك البياض المُشع...، إبراهيم كان مُسافراً إلى السعودية يعمل هُناك، ويبدو بأنه عندما سمع أخبار أخوه؛ أتى فوراً...، ثم قال:

. اقعدي طيب.

جلستُ بجانبهم، نظرتُ له مجدداً وسألته:

. وأنت بقيت كام سنة دلوقتي يا إبراهيم؟

رد قائلاً:

. أنا ستة وعشرين سنة.

نظرتُ إلى يده، كان لدي الفضول بمعرفة هل مُتزوج أم لا، لم أجد شيئاً في أصابعه...، كان يبدو عليه التدين والالتزام، الاحترام الشديد وأخلاقه العالية، ثم قالت خالتي:

. مش عاوزة تدخلي ليوسف؟

. عاوزة طبعاً!، ينفع ادخله دلوقتي؟

. ايوة ينفع، ادخليله هو صاحي جوا..

دخلتُ الغُرفة، وجدته نائماً على سريره، يُحرك عينيه في كل مكان في الغُرفة، وكأنه يُحاول أن يتذكر أي شيء، ولكن بدون جدوى... كان منظره يُقطع في قلبي، يُمزقه تمزيقاً، لو أنا في مكانه ماذا سيكون شعوري!، شعور مُذل للغاية بأن تفقد ذاكرتك؛ فتنسى كل ما مررتُ به، كل شخص عرفته، كل شيء تُحبه، كل شيء تستريح إليه... تنسى وكأنك لم تكن شيئاً في السابق... أتذكر يوماً عندما قمت بتغيير نسخة الكمبيوتر الخاص بي، لم أكن أعلم بأنه عند التغيير كل شيء عليه يُزال، كنتُ حزيناً للغاية... لقد فقد الجهاز ذاكرته، كل شيء تعبت في

تحميله اختفي، كل مجهودي ذهب هباء... فما بالي بأنْ أفقد أنا ذاكرتي؟، كيف سأبدو؟، مُحطماً مثل يوسف الآن... يا الله أرجوك عُد إليه بذاكرته، فهي من أغلى ما يملك الإنسان..

قلتُ:

. يوسف؟

بالتأكيد كانت إجابته معروفة، فقال:

. أنتي مين؟..

فدمعت عيناي وقلتُ:

. يوسف أنا كنت من أغلي الحاجات اللي تملكها في حياتك... أنا كنت بنتك وأمك وأختك، أنا كنت واحدة شايلها في عينيك، ومخبيها في قلبك..

فقال:

. أنتي حبيبتي!

فابتسمتُ وقلتُ:

. لأ يا يوسف أنا مش حبيبتك... أنا بنت خالتك، بس كنا قريبين من بعض أوي، كنا بنتقابل دايماً وبتقولي كلام حلو، كنت بتديني روايات أقرا فيها، كنا اكتر من أخوات يا يوسف، وكمان أنا كنت حبيبة صديقك المفضل، أنتيمك يعني..

فقال مُنذهلاً:

. طب وهو فين صديقي ده!، مجاش ليه؟، مشفتهوش ليه؟، هو مش المفروض بيحبني... أنا عاوزه وعاوز اشوفه يا... قولتيلي اسمك أيه؟!

. أميره يا يوسف... بإذن الله هو هيجيلك أكيد لسه معرفش أنك عملت حادثة، أكيد أول ما يعرف هيجيلك علطول..

ثم تحدثنا قليلاً أنا وهو، كنتُ مرهقة للغاية وأُريد أن أنام، خرجت قصصت على خالتي وإبراهيم ما حدث بالداخل، وقررت الذهاب إلى البيت؛ لأُطمئن أُمي وأنام، فقلتُ:

. عاوزين حاجه؟، أنا هروح أنام لأني مطبقة من امبارح ومش قادرة..

فقال إبراهيم:

. أستني أنا كمان مروح وهوصلك معايا عربية.

نزلنا أنا وهو، وأثناء خروجنا من المشفى، ألتقيتُ بماهر وهو ينزل من سيارته الزرقاء!!!

***

الفصل الحادي عشر

مُنذ ثلاث سنوات.

لا أعلم كيف نجوت من تلك الحادثة... ولكن كنتُ أتمنى موتي حقاً، كنتُ أتمنى ألا أبقي مُجدداً في هذه الحياة، أُقسم بأنَّ ألم فُراقه يُعذبني أكثر من آلآم الحادثة... أُقسم بأنَّ كسر عظامي أهون على من كسر قلبي... لقد رأيت الموت مرتين وليسَ مرة واحدة فقط، الأولى عندما أخبرني بأنه يُريد الابتعاد عني، والثانية عندما ارتطمت بي السيارة، أُقسم بأنَ الأولى هي أشد شعوراً بالموت من الثانية... وأنَّ الأولى هي السبب الرئيسي لحدوث الثانية، كنتُ ذاهبة إليه مُعتقدة بأنه سيُخبرني بأحاديثه الرائعة، بكلماته التي تنجو بقلبي من جحيم الحياة، ظننتُ بأنه يُحبني، ظننتُ بأنه باقياً إلى الأبد؛ إن بعضَّ الظنِ إثم... لقد ذهب بعيداً، وذهبت أحاديثه معه، ولكنها بقيت في قلبي، بقيت ساكنة بداخلي، بقيت كلماته في أُذني دائماً، أتذكرها عند الاشتياق، ولكنه تركني أُواجه جحيم الحياة وحدي، بدون يده التي كانت يمدها لي؛ فينتشل قلبي من ذلك الجحيم، وعندما كنتُ بين أحضانه، أشعر بأنني قد عانقت الجنة، وعندما يُفلتني من حُضنه؛ أعود إلى الجحيم مرة أخرى، ابتعاده كافياً بأنْ أفقد الشعور بأي شيء سعيد، كافياً للشعور فقط بالوحدة، الألم، الاشتياق..

بعينٍ تدمع قال ماهر:

. أنا مش عاوزك تفكر أني أستغلالي... مش عاوزك تحس بالعطف عليا، خليك ثابت على قرارك، أنا هبعد عنها، وأنت خليك جنبها، أسندها رغم أني عارف محدش هيسندها زيي... مش هتحس بأنها في أمان من غيري، مهما حاولت تحسسها أنها كاملة، هي هتفضل مُتأكدة أن في شيء ناقصها، الشيء ده هو أنا..

لم يعرف ماذا يقول يوسف، ولكنه كان يُريد قول الكثير لصديقه.،. صمت ولكن عاود ماهر الحديث وقال:

. قولها أنك عرفت كل حاجه مني، قولها أنك عاتبتني وضربتني عشان كنت بلعب بيها ومش بحبها، متفهمهاش أبداً أنك أنت اللي بعدتنا!، فهمها أني أنا اللي وسخ وأني مستاهلش أي حاجة، فهمها أنك بعدت عني ومبقناش صحاب... أنا هفتقدك جداً يا صديق طفولتي، بس لازم أواجه الحياة لوحدي، وأتعلم أسند على نفسي.

قال له يوسف:

. هتبطل يا ماهر كل اللي بتشربه، أنا واثق أنك هتعمل أي حاجه عشان ترجعلها..

. موعدكش يا صاحبي...، رغم أني هحاول بس مش متفائل، أنا همشي وأتمنى أني أرجع في يوم وأقولك أني بقيت إنسان كويس... خد بالك منها، سلام.

. خد بالك من نفسك...، سلام.

لم ينتظر حتى لرؤيتي، لم ينتظر أن يراني بخير، أنه يهرب من لقائي؛ لأنه يعلم حجم اللوم الذي سأُلقيه عليه، لأنه يعلم أنني سأُعاتبه، كالطبيبة التي تُعاتب مريضا بأنه لم يلتزم بالدواء، كالأُم التي تُعاتب صغيرها بأنه أهمل واجبه المدرسي، وفي تلك حالتين العتاب هُناك عامل مُشترك؛ الخوف، نعم خوف الأولى على صحة المريض، خوف الثانية على مُستقبل ابنها، أما أنا فخائفة على الاثنين... على صحته ومُستقبله، وخائفة على نفسي من دونه، فالأمان يكمُن في وجوده...، خاصةً أنني لم اعتد على العيش من دونه، لم اعتد النوم على ذكرياتنا سويا، لم اعتد الاستيقاظ على صوت خُيل لي بأنه صوته... هو لم

يُلمح حتى بأنه سيرحل، كان حديثه فقط عن البقاء؛ فرحل واستُبدل حرف القاف بالكاف، فأصبح كل حديثي أنا عن البُكاء..

مرت الأيام، مرت وكأنها لا تُمر، مرت كطعم الموت مُر للغاية..، كنتُ انطوائية، مُنعزلة عن الجميع، باستثناء يوسف، كان بجانبي دائماً، منذُ رحيل ماهر وخروجي من المشفى، وهو يأتي إلى المنزل كل يومٍ، حاملاً كتاب من المكتبة التي يمتلكها، أو أنه يُقنعني بالخروج والجلوس أمام البحر، يكون مُجهزاً مجموعة من الموسيقى التي نُحب سماعها، لنجلس بلا مُبالاة للعالم، وفي يومٍ من تلك الأيام قررتُ بأنْ أُخبره بالحقيقة، حقيقة حُبي لماهر، وأنه السبب في تلك الحادثة..، فنزعت السماعة من أُذني

وقلتُ وأنا أنظر إليه:

. يوسف..

رد وهو ينظر إلى البحر:

. عيون يوسف..

فنظرتُ أنا الأخرى إلى البحر وقلتُ:

. أنا وماهر كنا مرتبطين..، هو مكانش موجود بالصدفة في يوم الحادثة زي ما قالك، وزي ما أنا قولتلك، هو يومها...

فقاطعني ونظر لي وقال:

. يومها قالك أنه مش بيحبك وعاوز يسيبك، قالك إنه مل منك خلاص.

أعدتُ النظر إليه وقلتُ مُندهشة:

. عرفت منين!

. هو اللي قالي كل حاجه.

فقلتُ:

. وأنت عملتله أيه!؟

قال وهو ينظر إلى الأسفل:

. مقدرتش أعمله أي حاجه، غير أني أقطع علاقتي بيه خالص..

فقلتُ بنبرة هادئة:

. ليه يا يوسف... هو صديق طفولتك ومكنش ينفع تخسروا بعض!، ده اللي كنت خايفة منه..

فسألني:

. كنتي خايفة من أيه؟

فقلتُ وكأنني أُعاتب نفسي:

. كنت خايفة تبعدوا عن بعض بسببي... عشرة عُمر تضيع في ثانية كدا بسببي، أنا السبب في كل حاجه يا يوسف مش هو..

حينها خانتني دموعي كالعادة وبكيتُ... فاقترب يوسف مني، مسح دموعي واحتضنني لأول مرة وقال:

. ملكيش ذنب في حاجة يا أميرة، هو لو كان قالي أنكوا مرتبطين، كنت هتقبل الموضوع عادي، كنت هعمل كل حاجه عشان تفضلوا جنب بعض... إنما هو كان بيلعب بيكي يا أميرة، بيلعب ببنتي، أيوه بنتي!

فزاد بُكائي وزادت مُواساته لي بكلماته التي تخترق صميم قلبي... وكأنَّ ماهر كان رصاصة صُوبت في قلبي، ويوسف هو من أزالها، كأنَّ ماهر كان عبارة عن داء انتشر في جسدي، ويوسف هو من كان

الدواء... نعم لن أكذب، بقاء يوسف بجانبي هو الذي كان يدفعني إلى الاستمرار في العيش من دون ماهر..

مرت الأيام على ذاك الحال... مرت الليالي من غيره، كنتُ أراه أحيانا خارجاً من مقهى يجلس بها دائماً... الحقيقة بأنني كنتُ من أتعمد الذهاب إلى هُناك؛ لكي أراه... كنتُ أُحاول بألا يراني، لكي لا يعرف بأنني ضعيفة من غيره، بأنني يائسة من دونه، كنتُ أدعيّ القوة، بينما أنا لم أكُن سوى أضعف مخلوقات الله..

ثم جاء ميعاد الامتحانات، هو في الصف الثالث الثانوي، ويوسف أيضاً، أي أنه عام الحصاد، حصاد مجهود أعوام كثيرة مرت، هو أصعب عام قد تمرُ به، ولكنه يُحدد من ستكون في المُستقبل، هل ستُعاشر النجاح، أم ستسقط في قاع الفشل... كنتُ أتصل دائماً بيوسف؛ لأطمئن ماذا فعل في كل امتحان يمرُ به، كان يُخبرني بأنَّ كل شيء على ما يرام، مرت الليالي وجاءت نتيجتي، كالعادة كنتُ من أوائل المدرسة، لأصعد إلى الصف الثاني، ثم انتظرتُ نتيجة يوسف، ليس يوسف وحده..

ثم جاء ميعاد النتيجة، وجاء يوسف إلى منزلي يصرخ، فتحت أُمي له الباب، دخل إلى غُرفتي مُسرعاً من دون أن يستأذن حتى، كان سعيداً جداً، لم أره كذلك من قبل!، ثم قال لي وهو يأخذ نفسه بصعوبة:

. أميرة باركي ليا.

كنتُ أجلس على السرير ففزعتُ من مجلسي، دلفت نحوه وقلتُ بلهفة:

. ها عملت أيه!

فأخذ أنفاسه، أستند على كتفي، ثم قال:

. جبت97% يا أميرة أنا مش مصدق نفسي!

لم أُصدق أيضاً!، لم أتوقع بأنَّ يوسف سيُحقق تلك النسبة المُرتفعة، فصرختُ أنا الأخرى من السعادة، وعانقته وقلتُ:

. ألف مبروك يا يوسف، أنا كنت عارفة أن نفسك تجيب إعلام، كنت بتحلم الحلم ده، وحققته أهو بمجهودك، وبوقفة ربنا جنبك، وأنا كمان جنبك دايماً يا أعظم أخ في الدنيا!

فابتسم لي وقال:

. الحمد لله.

ثم دخلت أُمي علينا، فأخبرها، ففرحت له كثيراً وهنأته، ثم قالت بصوت عالٍ:

. عقبال بنتي يارب.

فكان يوسف هو أول المُتفائلين بي، فقال:

. بإذن الله بنتك هتطلع مُهندسة قد الدنيا، أنا واثق فيها جداً.

فقالت أُمي بابتسامه عريضة:

. يسمع من بوقك ربنا يا حبيبي.

ثم خرجت من الغُرفة، كان في بالي سؤال أُريد أن أطرحه على يوسف... كان ينقص فرحتي شيء آخر، ولكنه قرأ أفكاري، فقال بوجه مؤسف بعد سعادته:

. بس أنا زعلان من حاجة..

فقلتُ وقلبي ينبض بشدة:

. زعلان من أيه؟!

فوضع رأسه في الأرض وقال:

. ماهر..

فأسرعتُ بقول:

. ماله!!

فأردف قائلاً:

. ماهر سقط وهيعيد السنة..

حينها ذهبت فرحتى بيوسف هباء، نعم على الرغم من علمي بأنَّ ماهر كان لا يضع اهتماما لدراسته، وأنه مُقبل على السقوط، ولكن كانت الصدمة كبيرة... لم أتمن أن يحدث ذلك أبداً، لم أتمن إيذائه وإيذاء نفسيته، يا الله لو أنك تنتقم لي؛ فأنا لا أُريد أية ذرة انتقام... أنا أُسامحه على كل ما فعله بي، أُسامحه يا الله..

ثم قلتُ بحُزنٍ:

. ربنا معاه..

منذُ تلك الليلة وأنا لم أعرف عن ماهر أي شيء... لم أره في الشوارع، في المدرسة، في المقهى!، وكأنه اختفى تماماً، وعندما كنتُ أسأل يوسف؛ يُخبرني بأنه لا يعلم شيئاً عنه أيضاً، ثم مرت الليالي، الشهور، السنوات وأنا أتذكره دائماً... عيناه العسليتان في بالي، ضحكته، كل ما يتعلق به!، ذهبتُ أمام بيته في إحدى الأيام وانتظرته يخرج، ولكنه لم يفعل، أُريد أن أطمئن عليه... أُريد رؤيته ولو لمرة واحدة... أين ذهبت يا ماهر؟، هل هربت من عبء الحياة كعادتك... هل انعزل عن العالم أجمع؟، ماذا تفعل الآن؟، هل، تشعر بالوحدة؟،

تشعر بثقل همومك؟، هل تجد من يُخبرك بأنك أفضل شخص في العالم، رغم كل ما يصدر منك؟، أين ألقاك يا عزيزي؟، أين أجدك..!

مر عامين؛ ثم جاء موعد شهادتي، أخبرني بها يوسف، هو من أحضرها لي، فدخل المنزل يصرخ مثلما كان يصرخ يوم شهادته، هذه المرة خرجتُ أنا إلى الصالة، ركضتُ إليه وقلتُ:

. أنا عملت أيه يا يوسف!

خرجت أمي وأبي وأخوتي وهم يركضون أيضاً، ثم قال بسعادة غامرة:

. مبروك النجاح يا بشمهندسة!

فقفزتُ إلى الأعلى، عانقت أمي، وكأنَّ هماً وانزاح من على صدري، ثم سأله أبي بعفوية:

. جابت كام؟

فنظر لي يوسف وقال:

. جابت 98%، مبروك يا بنت خالتي!

. الله يبارك فيك يا يوسف.

ثم هنئني أبي وهنأني الجميع، وكنتُ أنتظر التهنُئة من شخص مفقود إلى الآن..، انتظرته طويلاً قبل أن أُسافر إلى القاهرة، وكعادته لم يأت..

***

الفصل الثاني عشر

الآن.

نعم هو ماهر!، تقابلنا وجهاً لوجه بعد نزوله من سيارته، وقفتُ في مكاني دون أن أخطو خطوة أخرى، نظرنا إلى بعضنا البعض في دهشة سيطرت على ملامحنا، كان إبراهيم يمشي بجانبي ولم يأخذ باله بأنني توقفتُ؛ فأكمل سيره ناحية سيارته، ثم قلتُ بصوتٍ رقيق:

. ماهر؟

صمت لحظات ثم قال:

. أميرة... عاملة أيه؟

أنا على ما يُرام يا عزيزي، ولكن هل أُخبرك بأنني قد اشتقتُ إليك، بعد ثلاثة أعوام من الفُقدان ها قد حان موعد لقائنا... ها قد شاءت الصُدفة بأنْ نلتقي، بأنْ تقع عيناي صوب عينيك، بأن أشُم رائحتك تدور حول أنفي، بأنْ أستمع إلى صوتك المُتناسق؛ كصوت زقزقة العصافير صباحاً، لا ريب في أنك تغيرت كثيراً عن الماضي، اختفت ملامح وجهك الطفولية، نمت لحيتك كثيراً وأكل الشحوب وجهك، أسفل عينيك أصبح مُفعم بالسواد، أنت لست بخير... ولكن كل هذا لا يُهم، أنت تعلم بأنني بارعة في تحويل كل ذلك إذا أردت أنت!

في ماذا تُفكرين يا أميرة حالياً؟، بالطبع ستُخبرينه بأنكِ بخير وأنتِ لستِ كذلك... قلتُ:

. كويسة الحمد لله... وأنت؟

حينها لاحظ إبراهيم بأنه قد سبقني، فنظر خلفه ورآني أتحدث معه، نادى وقال:

. أميرة؟، وقفتي ليه!

هذا ليس وقتك يا ابن خالتي... ماذا سأفعل؟، أُريد أن أبقى معه قليلاً، أُريد التحدث إليه، فقلتُ:

. طب اسبقني أنت يا إبراهيم معلش أنا هقف شوية.

لقد لاحظ بأنني أقفُ مع شخصٍ ما، فقال:

. خلصي براحتك، أنا هستناكي في العربية مش همشي.

كان يقف هادئاً تماماً كأسطوانة موسيقية تحمل معزوفة هادئة، كان هدوؤه ذلك يدفعني إلى رقصة في مُنتصف الشارع... ولكن بحُكم تقاليدنا لا نستطيع، ينظر لي في شرود وكأنه يندم؛ يندم على تركه لي، يندم على ثلاث أعوام مضت من غير وجودي، يعض أصابع الندم والحسرة على فُقداني... نعم شعرتُ بذلك من دون أن يبوح بحرفٍ يدلُ على ذلك، وأنا مُتأكدة أيضاً بأنهُ يفهم نظرتي له جيداً، يرى نظرات الحنين تتلاعب بوجهه، يرى يداي تتآكل اشتياقاً إلى مُصافحته، يشعر بأنَّ قلبي المُتألم بسببه يبتسم الآن بلا اهتمام إلى ذلك الألم.

ثم بعد شروده التام تذكر بأنني قد سألته على حاله، فقال مُسرعاً:

. أنا تمام بخير.

لا أشعر بأنك بخير، من بين الأناس جميعاً أستطيع أن أُدرك حالتك، أنت تدعي ذلك، وأنا أيضاً مثلك... ثم بعد دقيقة من نظرات الاشتياق المُتبادلة، ينظر لي في صمتٍ وكأنني إحدى روايات (فرانز كافكا)، مُقدمة الرواية هي عيناي، وكما يقولون القارئ يعلم من المُقدمة نسبة شغفه تجاه الرواية، قرأ عيناي في حماسٍ شديد وشعر بشغف تجاهي، ثم بدأ في قراءة ملامحي الجميلة بعينيه البراقة التي

تفحص كل حرفٍ، بينما أنا أُداعبه بكلماتي فيزداد بريق عينيه وشغفه قد بلغ ذروته، يعبث بصفحاتي وكلما انتهى من قراءة صفحة يُطويها، يعلم بأنَّ الأحداث تتغير، هُناك الكثير من الأحداث الحزينة في صفحاتي، مثل لون الفُستان الأسود الذي ارتديه، كذلك السواد الذي يقبع أسفل عيناي رافضاً الابتعاد، يدي اليُسرى التي تظهر عليها آثار مُحاولات إيذاء نفسي بآلة حادة، جفوني التي تأبى النوم في كثيرٍ من الأحيان، وإذا دخل في تفاصيلي أكثر؛ سيشعر باحتضار قلبي ومُعاناته المُستمرة، نعم كان يقرأني والبؤس يُسيطر عليه من شدة حُزني، ولكن كانت نهايتي أجمل وأسعد مما تخيل؛ ابتسامة تحمل الكثير من ملامح طفلة وذلك الثُقب الذي يزيد ابتسامتي جمالا..

ثم انتهى من قراءتي سريعاً، كان يقول بداخله إنني أجمل رواية قرأها في حياته، وأنا كنتُ أقول بداخلي أنه أجمل من قرأني... ثم قلتُ له بعد صمت طويل:

. طالع ليوسف؟

لم ينطق وكأنه أعاد قراءتي مرة أخرى لجمالي!، فقط هز رأسه مؤكداً... ثم قلتُ:

. طيب أنا همشي عشان ابن خالتي مستنيني في العربية.

كان إبراهيم ينتظرني في الجهة المُقابلة للطريق، ينظر بوجه غاضب، وقبل أن أتخطى ماهر وأعبر الطريق أمسك بيدي وقال:

. هستناكي النهاردة بليل في المكان بتاعنا.

وقبل أن أسأله متى، سبقني وقال:

. الساعة9

أومأت برأسي موافقة، ثم أفلت بيدي؛ تذكرتُ حينما أفلت بيدي من ثلاثة أعوام، كأنه أفلت برأسي عند اتكائي على كتفه... وكأنَّ حزني حينها أصبح عارياً أمام الجميع؛ فجذب اندهاش سيارة فارتطمت بي... ذكريات لا تُريد أن تكف عن مُطاردتي، تلحق بي أينما ذهبت، حتى وأنا بجانبك الآن... ثم صعد هو ليوسف، بينما أنا عبرت الطريق ودخلت سيارة إبراهيم، كنتُ أبتسم بداخلي سوف أُقابله اليوم أخيراً، ثم قال إبراهيم:

. الشكل اللي كنتي واقفة معاه ده مش غريب عليا، مين ده يا أميرة؟

. ده ماهر، صديق طفولة أخوك.

. أيوة افتكرته، كانوا أكتر من أخوات، بس أنتي وقفتي معاه كتير ليه!

نظرتُ إليه نظرة تعني أنني لا أُريد الرد عليه... فقال وكأنه يعتذر على السؤال:

. أسف على السؤال، مش قصدي أضايقك، بس مينفعش تقفي معاه كدا في الشارع، يعني حتى لو في بينكوا حاجة ابعدوا عن عيون الناس وخصوصاً أن قرايبنا هنا وميحصلكيش مشكلة.

شعرتُ بطيبة قلب إبراهيم من حديثه وبلهجته التي تميل إلى الخليجية، فأخبرته بأن يطمئن؛ لا يوجد شيء بيني وبينه، ثم وصل بي إلى المنزل، شكرته ثم دخلت المنزل وطمأنت أُمي بأنني قد جئت، وهي بدورها أعادت تلك الأحاديث المعتادة عن أبي وأنه يُحبني ولكنه قاسياً، لم يكن في بالي ما فعله وقاله أبي، فقط أُريد النوم لكي أستيقظ قبل التاسعة مساء؛ أستعد لمُقابلة ماهر... أخبرتها أنني بخير وعانقتها لكي لا تقلق حيال أمري، ثم ذهبت للنوم، كنتُ أتوقع فور وضع رأسي على الوسادة سوف أنام؛ ولكنني مكثت في التفكير فيه،

ماذا سوف أرتدي، ماذا يُريد وماذا سيقول، كنتُ قلقة من ألا أستيقظ ويفوتني الميعاد؛ فوضعتُ خمس مُنبهات على الهاتف ووضعتُ الهاتف بجانب أُذني..

رن المُنبه الأول في الساعة الثامنة مساء؛ من أول رنة استيقظتُ وكأن عيناي كانا ينتظران الميعاد أكثر من قلبي، أو أن قلبي كان مُستيقظاً ليعطي إشارة إلى عيناي؛ هيا استيقظا لديَّ ميعاد غرامي اليوم، أنا القلب الذي لم يزق طعم النوم أو الراحة منذُ ثلاثة أعوام، أنا الذي كنتُ أصرخ مُتألماً فتستيقظان من شدة صراخي..؛ ولكنه كان صراخا يحمل كل ملامح الحُزن، الوحدة، الفُقدان، أما اليوم فصراخي يحمل الكثير من الحُب، اللهفة، الانتظار، أتعلمان كم تمنيتُ ذلك اليوم من الله، كم كان غيابه مؤثراً على انتظام ضرباتي، تخيلا إذا غابت الشمس يوماً عن مشرقها، إذا لم يأت القمر بدراً في مُنتصف الشهر، إذا ضرب زلزال مكة!، نعم غيابه كان بذلك التأثير المُدمر... ثم ردت عيناي على قلبي؛ لستَ وحدك من تألمت... لقد شخنا من بعد غيابه؛ فأصبحنا كعجوزين كفيفين لا نرى غير سواداى حالك، تقول بأنك كنت مستيقظاً ونحنُ نائمين، ألم تشعر بالكوابيس التي كنا نراها!، ألم تهتز أنت مما رأيناه، نعم كنا نائمين ونتألم أيضاً، لا تُعطي لنفسك دور البطولة فجميعنا في غيابه تألمنا، حتى أنامل الأصابع التي كانت ترتعش وتسقط كوب القهوة، حتى خصال الشعر التي كانت تتساقط كمريض سرطان... والآن جميعنا مُتشوقين إلى لقائه..

وقفتُ ثم فتحتُ خزانة ملابسي، كالعادة الحيرة في ماذا سأرتدي، ولكنني بالطبع سأرتدي فُستانا أزرق اللون، على الرغم من تشاؤمي من ذاك اللون منذُ يوم الحادثة... ألا أنني سأرتديه؛ لأنه يحبه، ارتديته ووضعت أحمر الشفاة لأول مرة منذُ زواج أحد أقاربي عندما كنتُ في

المرحلة الثانوية، لففت حجابي بكل عناية وارتديت حذائي الجديد الذي أحضرته لي أُمي، هرول أبي بأنْ يُلقي بعض كلماته فقال:

. الساعة9 وأنتي لابسة ومتشيكة وخارجة، مفيش دم خالص ولا جيتي تعتذري أنك كسرتي كلمتي!

لم أُرد أن أُفسد ذلك اليوم على نفسي؛ فذهبتُ إليه واعتذرت ووعدته بأنَّ فور خروج يوسف من المشفى سوف أُغادر إلى الجامعة، ثم سألني:

. طيب رايحة فين دلوقتي؟

. خطوبة واحدة صاحبتي وأتأخرت لازم امشي.

ثم أخبرني بألا أتأخر بالخارج، خرجتُ وأخذتُ (تاكسي) يصل بي إلى مكاننا المُفضل، لقد تأخرت الساعة التاسعة والربع، لكنني لم أكترث لأن ماهر لا يلتزم بمواعيده؛ فمن المؤكد أنني سأذهب وأنتظره هُناك...، ولكن فور وصولي فوجئت به عندما وجدته جالساً ينتظرني، يستند بظهره على أريكة تعودنا الجلوس عليها، يُدندن مع صوت أُم كلثوم المبعوث من هاتفه ويهز رأسه.

ذهبتُ إليه وجلستُ بجانبه نستمع سويا ونبتسم، نصف ساعة من الموسيقى، نصف ساعة من دون أن أنطق بكلمة واحدة وهو أيضاً، نصف ساعة من الصمت السائد على مجلسنا، ثم قرر أخيراً أن يبوح بشيء ما، نظر إلى نظرة فاحصة وكأنه أول مرة يراني، قال بصوت لا يخلو من إعجابه بي:

. الفُستان حلو أوي.

ابتسمت وكأنني طفلة يُداعبني ولا أعلم ماذا أقول، هو يفهم ذلك جيداً حتى أنه ابتسم عندما ابتسمتُ واحمرت وجنتاي من الخجل،

كانت الجملة جميلة للغاية، ظهر عليه كثيراً الإعجاب بالفُستان ولونه، ثم بدأ يُقرب يده من يدي المُمتدة على الأريكة... لم أراها ولكنني شعرت بها، أمسك بيدي وبدأ يلعب في أصابعي ويُعيب على أظافري القصيرة، ثم قال بصوت حنون للغاية:

.وحشتيني..

ماذا لو أنك عارياً في وسط طقس قارس البرودة، ثم جاء أحد وغطي جسدك فأصبحتَ تشعر بالدفء... ماذا لو أنك ظمآن في وسط صحراء قاحلة وطقس شديد الحرارة، ولا يوجد ماء وأنت على حافة الموت، ثم جاء أحد من بعيد وأعطاك زجاجة من الماء فأنقذ حياتك... هكذا هو شعوري عندما أمسك بيدي وعندما أخبرني بأنه اشتاق لي... شعرتُ بالأمان التام وكأن أُمي قد عانقتني للتو...

قررتُ بألا أصمت هذه المرة ولا أجعل الخجل يُسيطر على ملامحي، فقلتُ بنفس الصوت الحنون:

.وأنت كمان وحشتني... أوي!

شعرتُ بأنه أطمأن؛ أطمأن من أن قلبي ما زال يُحبه هو حتى بعدما تعذب وذاق مرارة الحياة بسببه، فازداد تمسكاً بيدي وضغط عليها وكأنني أُمه وهو ولدي وأخطأ، وها هو الآن يطلب مني أن أُسامحه عما فعله... نعم يده كانت تقول ذلك، ثم سألني عن دراستي وأخبرته أن كل شيء على ما يرام، كان في ذهني يدور سؤال غريب أُريد أن أطرحه، فقلتُ:

.كنت مختفي فين التلت سنين!

. مكنتش في إسكندرية... بعد ما سقطت جالي اكتئاب حاد، قعدت في البيت لمدة كبيرة أوي، وبعدين قررت أسافر لأهل أُمي في الأقصر، اشتغلت هناك لحد ما كونت نفسي بشكل كبير وجبت العربية دي.

نعم مثلما توقعت لم يكن في الإسكندرية... ساد الصمت من جديد واقترب مني أكثر ووضع يده على كتفي، كان يلتفت حولي ولا أعلم بماذا يُفكر، ثم مثلما يلتهم الحوت غريقاً التهم شفتاي أثناء غرقي في مُحيطِ عينيه... نعم كانت قُبلة أو بإضافة نون بعد القاف كانت قُنبلة انفجرت على حدود شفتاي... لتُمحي كل أثار تشقق شفتاي ولا تترك سوى آثارها..

عند الساعة الحادية عشر وعندما أصبح الهدوء مُسيطراً على مجلسنا، رن هاتفي والمُتصل رقم مجهول، أجبت فوراً عليه وقلتُ:

. مين!؟

. أميرة أنا إبراهيم أبن خالتك... ياريت تيجي دلوقتي المُستشفي يوسف عاوزك ومنعرفش ليه، تعالي يمكن يكون افتكر أي حاجة.

. حاضر أنا هاجي حالاً..

ثم أغلقت الهاتف وسمعني ماهر، قال مُسرعاً:

. هتروحي فين!

أخبرته بأنهم يريدونني في المشفى، وأخبرته بأنني مُضطرة إلى الذهاب، أصر بأن يوصلني وأنه لن يتركني أذهب وحيدة، كانت السيارة في الجهة المُقابلة وعند عبورنا اندفعتُ وكادت تصدمني سيارة مُجدداً في نفس المكان!، ولكنه شدني للخلف وعانقني بشدة وقال:

. مش هسيبك تروحي من إيدي تاني يا أميرة، مش هتتأذي تاني من بعد النهاردة.

ابتسمت وشعرتُ بأنَّ قلبي كاد أن يُحلق عالياً من السعادة، هل ذهب الحُزن وابتعد عنه أخيراً؟، أم أنه سيعود بصدمة أكبر حجماً..، يا الله كم أن عناقه دافئاً كمُخيم في أكثر المناطق برودةً، يا الله هل أنه سيدوم حقاً؟!

ثم أوصلني إلى المشفى وأعطيته رقمي، صعدتُ مسرعة إلى يوسف، دخلتُ إلى غُرفته، كانت الساعة الثانية عشر، اعتذر أخوه بأنه أقلقني ولكنني أخبرته بأنني كنتُ بالخارج وجئت، ثم قلتُ ليوسف:

. ها يا يوسف افتكرت حاجة؟

فقال بنبرة شقت قلبي نصفين:

. لأ، بس أما قعدت معاكي الصبح ارتحتلك، حسيت أنك كنتي قريبة مني أوي، كنتي عزيزة على قلبي، كمان الشخص اللي جالي بعدك وقال إنه صديق طفولتي ارتحتله أوي...، أنا عايزكوا تزوروني دايماً يمكن أفتكر أي حاجة تساعدني..

. هتفتكر كل حاجة يا يوسف بأذن الله، احنا كلنا جمبك.

جلستُ معه وتكلمنا لأكثر من ساعة، حاولتُ أن أُذكره بشيء ما ولكن ذاكرته لم تستجب...، ثم رن هاتفي ظننتُ بأنه أبي وسوف يُوبخني بسبب تأخري هكذا، ولكنني وجدته مازن!، أجبتُ عليه فقال بصوت حزين:

. أميرة؟

. أيوة يا مازن في أيه!

. أم أمل... الله يرحمها

. أم أمل ماتت!

. أمل!!!!!!

الفصل الثالث عشر

ردد يوسف اسمها بغرابة شديدة، أخذ يهز رأسه يميناً ويساراً وكأنه على مقربة من تذكر شيء، لم أكترث إليه بالطبع فكانت بمثابة الصدمة التي سقطت على أُذني كسقوط صخرة كبيرة على شخص ما، عندما التقيتُ بها في المشفى شعرتُ من حديثها بقرب وفاتها، ولكنني لم أتوقع بأنها سوف ترحل بتلك السرعة، فهي كانت أمام عيني البارحة...، قلتُ لمازن بصوت يملأه الدهشة

. إزاي!، كنا معاها إمبارح..

فرد بصوت يائس:

. مش عارف يا أميرة مش عارف..

. طيب أنا هركب بعد الفجر وهاجي علطول، خد بالك من أمل يا مازن..

وقفتُ مكاني أُفكر في حالة أمل الآن وكيف تبدو، آه يا إلهي لقد تحملت الكثيرة تلك الفتاة...، ثم لفت انتباهي يوسف وهو يقول:

. مش عارف ليه حسيت بحاجة غريبة في اسم صاحبتك دي، حاسس أني عاوز افتكر حاجة ومش قادر..

. دي صديقتي في الجامعة، أمها ماتت وأختها كانت انتحرت وأبوها مهاجر..

ثم قال لي حدثيني أكثر عنها: كُلما قلتُ شيئًا عنها بدا وأنه يتأثر كثيراً ومازال يهز رأسه، شعرتُ بأنه سمع ذلك الحديث مُسبقاً وها هو يُحاول التذكر ولكن بلا جدوى، ثم أخبرته بأنني سوف أرحل فجر اليوم أي بعد أربع ساعات تقريباً أو أقل، قررتُ الرحيل إلى المنزل أولاً؛ لأخبر

أبي وعائلتي، رحلتُ ولامني أبي على تأخري ولكن سرعان ما بررت ذلك، قلتُ له بأنني ذهبت إلى يوسف ثم أخبرته برحيلي إلى القاهرة؛ بسبب وفاة أم صديقتي ولكنه وضع شرطاً بعدم عودتي إلى الإسكندرية مُجدداً إلا في الإجازة الشتوية؛ فهو يريد بأنْ أُركز في دراستي وأحضر دوام الجامعة، لم أتردد لحظة في رحيلي فيلزم وجودي الآن بجانب صديقتي... وها أنا أطمأن قلبي على يوسف قليلاً، ثم بعد الفجر هممت بالرحيل تاركة الإسكندرية مُجدداً، على قدر صعوبة تلك الأيام؛ حادثة يوسف وفُقدانه ذاكرته، الصفعة التي صفعها أبي لي، والآن خبر وفاة أم صديقتي، إلا أنني أشعر بأنَّ قلبي سعيداً لسببٍ ليس بمجهول؛ فمُقابلة ماهر وقُبلته وحديثه لي بأنه لن يجعلني أذهب من أيديه كان كفيلاً بأن يجعل قلبي سعيداً، نعم هو لم يقل بأننا عُدنا إلى بعضنا البعض ولكن كلانا شعرنا بعودتنا، ولكن قلبي مضطرب ويخشي فُقدانه مُجدداً كخشية رجل صالح من جحيم جهنم... نعم كان بُعاده جحيماً يسطو قلبي فيه بلا رحمة يُعذبه عذابا أليما... أنا خائفة من المستقبل كثيراً..

أنْ تفقد جزءاً من لحمك ودمك أشبه بفُقدان روحك، أشبه بفُقدان قلبك في معركة الحياة، أن يأتي أصعب اختبار قد تواجهه في حياتك وأنت ليس مُستعداً إليه؛ نعم وفاة والدتك بالتحديد... هو قدر من عند الله ولكن نادراً عندما تجد أحداً يوزن الأمر بعقله، فذلك الألم الذي يضرب بقلبك حينها يصعب بأن تجد عقلك يُواجه الألم، قلبك هو من يتلقى جميع الضربات المُبرحة التي تفتك به، وكأن الحياة مباراة ملاكمة ووفاة والدتك هي الضربة القاضية التي تهبط بك أرضاً... يأتي الحُزن حينها من دون أن يدق باب قلبك ويستأذنه بالدخول؛ فيدخل مسرعاً وكأنه ترك العالم أجمع واختبأ في بقايا قلبك المُتناثرة... حالة من الأسى الشديد قد تُسبب أضراراً بالغة

الخطورة؛ فتكون بعدها مُنعزلاً وتبدأ في مواجهة ذكرياتكم سوياً، وأنت ما زلت لم تستوعب أن الشخص الذي تسبب في ولادتك على قيد الحياة قد رحل من الحياة... من علمتك الزحف ثم محاولة الوقوف على قدميك ثم السير ها قد سارت هي إلى القبر وزحفت نحو الموت؛ فتسقط وكأنك عدتُ كما كنت ولا تستطيع أن تنهض من دونها، من أضاءت عتمتك رحلت وعدتُ إلى العتمة من جديد، تبدو من بعيد مُضيئاً كمحاولة أن تتظاهر أنك بخير، لكنك مثل القمر جسم مُعتم من الأساس... الأم فُقدانها ليس بالهين وليس باختيارها البقاء دوماً حتى وإن بلغت حاجتنا إليها أقصاها؛ فعلينا أن نؤمن بالقدر ونُحاول النهوض..

بمجرد وصولي إلى القاهرة ذهبت إلى العزاء، كان الجميع يرتدي اللون الأسود؛ اللون الذي ارتبط بالحُزن والموت والاكتئاب والظلمة، اللون الذي يخشاه الكثيرون ولا يتفاءلون به؛ فيرتدونه في العزاء كتعبير عن حُزنهم بالأخص النساء، كانت صديقتي تجلس وتضع عينيها في الأرض دون وعي بما يحدثُ حولها، ذهبتُ إليها في الفور وعانقتها عناق الأم لابنتها، الأخت لأختها، الأب لابنته؛ فجميعهم رحلوا وتركوها وحيدة هكذا... سقطت دموعها على كتفي مُعلنة استسلامها إلى وفاة أُمها، وقال بصوت محشرج للغاية:

. أنا مخترتش أي حاجة في حياتي يا أميرة... مخترتش أننا نبعد عن عيلتنا ونيجي القاهرة وميعرفوش عننا أي حاجة كان زمانهم جنبي دلوقتي، مخترتش أبويا اللي المفروض سندي يسافر ويسيبنا لوحدنا ومنعرفش عنه حاجة، مخترتش أختي تنتحر متأثرة ببعاد أبوها وحست أن ضهرها اتكسر، مخترتش السرطان اللي صاب أمي وسبب في موتها عشان تلحق بأختي... أنا مخترتش أي حاجة في الدنيا دي غيرك أنتي..

كانت تبكي والجميع من صديقات الجامعة ينظرون إليها بكل بؤس وحزن، بينما أنا أضمها إلى صدري أكثر وأُقبل كتفيها وأقول لها بأنْ تهدأ... كان بُكاؤها يُشبه المطر بل سيولاً تسقط على أرضية كتفي، تصرخ من شدة الألم..

كصرخة طفلة صغيرة عندما تذهب أُمها إلى السوق وتتركها وحيدة... كنتُ أُحاول مشاركة ألمها فقلتُ لها بصوت خافت في أُذنيها:

. أهدي يا حبيبتي أنا جمبك ومعاكي، أنا أمك وأختك وحتى لو أنتي مش معتبراني كدا فأنا بجد بعتبرك بنتي، مرحلة وهتعدي وربنا هيصبرك بإذن الله و...

قاطع حديثي رجل يدخل من باب المنزل طويل القامة، شعره أبيض ناعم ولكن لا يظهر عليه العجز، يرتدي بذلة سوداء وحينما رأته أمل قالت بصوت مُرتفع رج أنحاء المنزل:

. بابا!!!!!!!!

نهض الجميع في ذهولٍ؛ فكيف الأب الذي غاب أعواما وتسبب في دمار العائلة يعود ليلة وفاة زوجته، بعد كل تلك الطعنات التي صوبها خنجره، بعد دس السُم في أوردتهم، بعد الحرائق التي شابت في قلوبهم، ها هو يعود الليلة بكل برودٍ وبخطى ثابتة تقدم من أمل وقال:

. وحشتيني.

عقل أمل لا يتدارك الموقف قط، ظلت تنظر إليه؛ بنظرة تملأها اللوم، الحزن، وكثيرا من الشر، وكثير أيضًا من الحنين الذي يختبئ خلف تلك النظرة القاسية، منذ رحيله وهي تحلم بليلة عودته؛ لتركض نحوه وتُعانقه وتُخبره باشتياقها إليه، ظلت تحلم وتحلم؛ حتى أختار أن يعود في كابوسها... ولكنها ثارت في وجهه قائلة:

. وحشتك!!!، أطلع برا البيت!، أطلع برا حسبي الله ونعم الوكيل فيك، بعد كل ده راجع تشمت في موت ماما!!

كان الأب يعلم بضريبة عودته التي سيدفعها دموعًا، يعلم بأن تلك الدموع ظلت تسكن عينيه أعواما تأبى الخروج منها تنتظر لحظة اللقاء المُرتقبة؛ لتزرف مُتواصلة بدون انقطاع، كان يبكي أمام الجميع رغم ثباته.

شعرتُ بحرارة اللقاء الذي جاء في الوقت الخاطئ، المكان الخاطئ، الظروف الخاطئة، استأذنت الجميع بالخروج وتركهم وحدهما؛ ليتحدثا سويا، ولكن أمل ثارت في وجهي أيضًا وقالت:

. متخرجيش حد!، دول كانوا جمبي وقت ما هو سابنا ومشي، مش المفروض إنهم يخرجوا؛ اللي يخرج هو، اللي يطلع برا البيت خالص هو!!

دلفت نحوه وظلت تدفعه إلى الخارج وهو يبكي ويقول:

. يا بنتي أسمعيني وافهمي مني سبب غيابي؛ أسمعيني دقيقة واحدة.

. سايب كل السنين دي وجاي دلوقتي عاوزني أسمعك!، طب مسمعتناش أنت ليه، مسمعتش صرخة أختي وهي بتنط من الدور التاسع وانتحرت، مسمعتش صرخات أمي والسرطان بينهش فيها، مسمعتش صرخاتي وأنا بستغيث بيك وجاي دلوقتي عاوزني أسمعك!

قال وهو يمسح دموعه الغزيرة:

. مسمعتكوش؛ لأن أنا كمان كنت بصرخ يا أمل، أنا كنت بتعالج برة من السرطان..

وقفت أمل عن اندفاع قسوتها ودفعه نحو الخارج، وسكنت مكانها دون تحرك، وظلت الدهشة تحتل حدود اللقاء، حينها استأذنت هي الحاضرين بتركها هي وأبيها وأنا!

وعندما غادر الجميع؛ أغلقت أمل باب المنزل ونظرت إليه وتقول غير مُصدقة لما قال:

. سرطان!، أنت بتعلق غيابك وكدبك وبُعدك على شماعة المرض!

هز رأسه وقال:

. أنا متأكد أنك مش هتصدقيني غير لما تتأكدي بنفسك.

أعطاني أنا مجموعة من التحاليل والأشعة والأوراق، ثم نظر إليها وقال:

. دي كل الأوراق اللي هتثبتلك إني كنت مريض بالسرطان من أول يوم أكتشفت فيه وأنا هنا لحد أخر يوم لما ربنا شفاني وأنا هناك، أعرضيها على مليون دكتور لو حابة وهتعرفي الحقيقة..

ثم أعطاني ورقة صغيرة وقال:

. الورقة دي فيها رقمي، أنا هستقر هنا في فندق ولما تتأكدي رني عليا..

ثم أدار ظهره إلينا وفتح الباب فنادت أمل عليه وقالت:

. طب لو ده فعلًا حقيقي؛ ليه هربت تتعالج بره من غير ما تعرفنا أي حاجة!

نظر إليها بحزنٍ وقال:

. لما تتأكدي الأول هقولك كل حاجة..

نظرت أمل للأوراق التي في يدي بعدما خرج نظرة طويلة تُحاول فهم ما يحدث، ثم دخل علينا فجأة مازن وهو يتساءل ماذا يحدث هنا؛ فركضت أمل نحو غُرفتها تبكي بشدة، بينما أنا شرحت لمازن الأمر العجيب الذي حدث هُنا منذ قليل؛ فلم يصدق ما يقوله ووصفه بالعربيد الأبله، وقال بصوت سمعته أمل:

. لازم نحرق الأوراق ونحرق معاها ذكرى رجوعه!

فخرجت أمل فورًا وقالت:

. لأ!، أنا يمكن من برا بكدبه وبكدب الأوراق، يمكن من برا بكرهه وبكره رجوعه، يمكن من برا فعلًا نفسي أحرقه؛ بس من جوايا وحشني، من جوايا الوقت ده بالذات أكتر وقت أنا محتاجة له، مهما حصل هيفضل أبويا واللي فاضلي من عيلتي كلها هو بس... يمكن اللي قاله كلام مستحيل يتصدق بس من جوايا مصدقاه لسبب مش هتعرفوه دلوقتي خالص وخليكوا فاكرين!

فرد مازن بحزم:

. يعني هتمشي ورا الأوراق دي!

. لأ، همشي ورا قلبي..

نعم القلب الذي يلين مهما بلغت القسوة ذروتها، القلب الذي يحترق ولا يُطفئه أحد، وإذا وجد أحدهم يحترق؛ أطفأه فورًا مُتجاهلًا ما قد حدث مُسبقًا من خذلان..

فقلتُ إليهم:

. في الفترة اللي أنا روحت فيها إسكندرية عرفت دكتور متخصص في المرض ده شاطر جدًا وهيساعدنا نعرف كل حاجة اللي في التحاليل دي، ومنها أطمن على يوسف كمان، بس من دون معرفة بابا أو ماما.

فأومأت أمل برأسها فورًا حينما ذكرت يوسف، وكان مازن لا يرضيه الوضع ولكنه قال:

. تمام خلينا نروح ونشوف..

***

الفصل الرابع عشر

لم نذهب مُباشرةً بعد اليوم الذي اتفقنا فيه أن نُسافر إلى الإسكندرية، كنت أشتاق إلى العودة رغم أنني لم ألبث هُنا في القاهرة أياما معدودة؛ يبدو بأنني أشتاق إلى أحدهم... كان مازن أيضًا يشتاق إلى الذهاب هُناك؛ لمعرفة حقيقة الأمر فقط، وأُقسم أن والد أمل كان أكثر من يشتاق إلى ذهابنا؛ لقد علم رقم هاتفي من إحدى رفيقاتي وأتصل بي وسألني ماذا فعلتم؟ أجبتهُ بأنَّ أمل ما زالت تُأجل الأمر، يبدو بأنه كان واثقًا من عودة ابنته إلى أحضانه إذا علمت نتيجة تلك التحاليل، حتى أنه سألني لماذا لم تذهبوا إلى طبيب هُنا في القاهرة؟؛ فأجبتهُ تلك المرة بحزمٍ أنه يتعدى حدوده هكذا، أن ابنته هي من اختارت الذهاب هُناك، أنني ما زلتُ عند موقفي منه أنه أقسى أب قد سمعت عنه؛ أقسى من قسوة أبي حتى!، فشكرني عما قلتُ وبدى بأن الحرج أمتلكه وقال:

. شكرًا؛ شكرًا حتى على كلامك عني، بس أنا لحوح كدا وسألت عشان أنا متأكد من حقيقة أمري ومستني أحضنها بفارغ الصبر.

أصبح قلبي لينًا بعد انفعالي حتى وأن كنت أصطنعه وأخبرته بأنني سأُخبره حين يتم الأمر ويجب عليه الصبر؛ فيجب مراعاة أن أمها تُوفيت منذُ أيام فقال لي:

. أمها دي زوجتي يا أميرة!، أنا أكتر حد حزين عليها، ماتت وهي أكيد كانت بتحسبن عليا وعلى اللي عملته فيهم، كان نفسي أشوفها قبل ما تموت... بس مقدرتش أرجع وأواجه عينيها؛ لحد ما فاجأني صديق ليا بأنها ماتت فرجعت فورًا..

فقلتُ:

. الله يرحمها ويسامحك..

ثم أنهينا حديثنا وأغلقنا الهاتف، هذا هاتف لم أكن أنتظره ولا أتوقعه، بينما الهاتف الذي كنتُ أنتظره وأتوقعه لم يأت حتى الآن...، ظلت الأيام تمر وما زالت أمل تؤجل ذهابنا، كانت هي الوحيدة التي لا تشتاق؛ حتى ظننتُ أنها قد ذهبت إلى طبيب هُنا في القاهرة من خلف أعيُننا، ولكنها لم تكن تغادر غُرفتها؛ كانت غُرفتها جميلة للغاية رغم ضيقها قليلًا، تُزينها الرسومات على جدران الغُرفة وكأنها غُرفة لإحدى الفنانات المشهورات، كانت الغُرفة مطلية بألوانٍ زاهية مُعاصرة، كانت الجدران تدل على أن ذلك المنزل لا تخلو منه السعادة، ولا تغادره سقمًا، ولكن هذا المنزل قد حمل أصفار الحزن على ظهره وتحمل الكثير من المأساة، بعدما كان في الماضي تزهوه السعادة، ليست السعادة المُصطنعة عليهِ الآن؛ السعادة الخالصة ولكن أحيانا لا يجري النهر كما يُريد سباحوه..

ولكن ماذا عن تلك الأيام التي تجري؟؛ ها قد مر ثلاثة أسابيع من دونِ حدوث شيء، لم تخرج أمل من غرفتها سوى للطعام أحيانا، كنتُ أُقيم معها ومازن كان يأتي إلينا في الصباح ويذهب بعد صلاة العشاء، أيضًا لم يُهاتفني ماهر وها هي نيران الانتظار تحرق قلبي، ولم يُهاتفني والد أمل مُجددًا، ولم نذهب إلى الجامعة، كنتُ أَفكر ماذا إذن لو ذهبت إلى الإسكندرية وأنا لا أعرف لماهر طريقًا ولا هاتفًا ولا أية فكرة عن حياته الجديدة... وفي اليوم الأول من الأسبوع الرابع منذُ وفاة والدة أمل؛ كُنا نجلس أنا وأمل ومازن على طاولة الطعام والصمت يُخيم على مجلسنا، ثم قالت أمل فجأةً:

. هنمشي بكرا..

أنتظر مازن حتى هدم ما في فمه ثم سألها:

. الإسكندرية بردو؟

. أيوة.

فأردف قائلًا:

. معرفش أيه السر في إسكندرية، في مليون دكتور هنا، ليه نروح المشوار ده كله!

فحدقت إليهِ أمل وقالت:

. لو عندك مواعيد أو مش عاوز تيجي معانا؛ ممكن تفضل وإحنا هنطمنك!

حينها أعاد مازن إمساك ملعقته بعدما ألقى بها عندما بدأت أمل حديثها وقال :

. إسكندرية إسكندرية، زي مانتوا عايزين.

وفي الصباح كُنا جاهزين في تمام الساعة السابعة صباحًا وكان مازن ينتظرنا خارج المنزل، وأثناء خروجنا من المنزل قالت أمل بصوتٍ خافتٍ:

. أُقسم بأن كلامه صح بس أنا رايحة إسكندرية لغرض تاني..

حينها لم أكن أفهم ماذا تقول وماذا الغرض التي هي ذاهبة إليهِ سوى معرفة حقيقة الأمر ولكن لأنتظر... ركبنا قطار الثامنة والربع المُكيف؛ كنتُ أجلس بجوار مازن وأمل كانت أمامنا جالسة بجانب شاب، وبعد تحرك القطار مال عليا مازن وقال:

. أنا متأكد أنه فاتني حاجات كتير أوي حصلت معاكي في إسكندرية.

فقلتُ له:

. تأكدك في محله.

ثم بدأت أحكي له كل شيءٍ حدث معي هُناك، وانتظاري لمكالمة ماهر، وأثناء حديثي وجدتُ أمل تُعانق الشاب الذي بجوارها وهي خالدة في النوم؛ وإذا بها تهزي وتقول وهي ترتعش:

. أنا أسفة مكنشي بأيدي أفضل يا يوسف، غصب عني يا يوسف، غصب عني يا يوسف..

ثم ظلت تهزي بتلك الكلمات كثيرًا والشاب يبدو بأنه شعر بالدفء في عناقها، ولكن سرعان ما انفعل مازن انفعالًا لم ألاحظه عليه من قبل، لم أتوقع قط ردة فعله تلك؛ فإذا بهِ ينهض من مجلسه بسرعة وينتشل يد أمل من على كتف ذلك الشاب، وأصاح فيها حتى تستفيق من نومها وتتوقف عن الهذيان، فإذا بها تفتح أعينها في رعشة أشد وتقول:

. غصب عني يا يوسف.

كانت تلك الصرخة عالية سمعها كل من في عربة القطار، وما زالت بداخلي تساؤلات كثيرة أنا ومازن؛ من يوسف وماذا تقصد بأن ما فعلته رُغمًا عنها!، ثم قال لها مازن:

. أرجعي نامي ورا جنب أميرة.

كانت تُحاول إدراك ما قالت؛ فصاح مازن مجددًا:

. قولتلك نامي ورا!

شعرتُ في صراخ مازن بالكثير من الغيرة، كانت الغيرة ظاهرة على وجهه كعلامة الصلاة التي تظهر في مُنتصف الوجه، فنظرت إليهِ أمل ثم جاءت وجلست بجانبي تسألني ماذا حدث؛ فأخبرتها وكانت لا تُصدق ماذا قالت ولكنني شعرتُ بسرٍ وراء ذلك الاسم؛ يوسف!

وصلنا محطة مصر في الساعة الحادية عشر والنصف؛ كانت الشمس حارقة بالخارج، خرجنا وركبنا عربة حي العجمي، كان معمل الطبيب بالقرب من المشفى التي بها يوسف؛ ذهبنا إلى ذلك المعمل سيرًا على أقدامنا، كانت الحقيقة تقترب منا كلما نقترب من المعمل، ثم دخلنا المعمل ووجدنا أناس كثيرين حاجزين الدخول قبلنا، فقلتُ بشيءٍ من الإحباط:

. نروح الفندق النهاردة ونحجز لبكرة؟

نعم لقد خططنا إلى الإقامة هُنا لبضعة ليالٍ في فندق؛ وقد وافقت أمل على ذلك، ثم قالت الفتاة الجالسة على كرسي ترتدي معطفًا أبيض بلهجة إسكندرانية:

. بس بكرة الجمعة، والدكتور مبيشتغلش الجمعة.

فقال مازن:

. لأ خلاص هنستنى النهاردة.

كانت لا توجد مقاعد في المعمل، الأناس يجلسون على الأرض والسلالم، ولكن استأذن مازن رجلين بأن يقفوا من مجلسهم لي أنا وأمل؛ فنحنُ قادمين من القاهرة فوافقا فورًا وجلسنا ننتظر دورنا، كان يسبقنا حوالي اثنان وثلاثون شخصًا، وأثناء جلوسنا عانقت أمل كتفي كما عانقت كتف الشاب الذي في القطار وأخذت تهذي بتلك الكلمات من جديد عن الشخص الذي اسمه يوسف ذاك.

ومن مشقة السفر، وبالكاد لم أنم في الليلة الماضية من التفكير في السفر ذاته؛ نمت أنا الأخرى وظل مازن جالسًا على إحدى درجات السلالم ينتظر دورنا، وعندما جاء الدور هز مازن كتفينا وقال:

. أصحوا دورنا!

وقفنا بسرعة ودخلنا على الطبيب ونحن نفرك بأيدينا في أعيننا وجلس كل منا على كرسي، قال مازن بابتسامة:

. معلش بقى يا دكتور هما كانوا نايمين برة، احنا جينا ليك من القاهرة مخصوص لهنا.

فرد الطبيب بابتسامة مُتبادلة:

. نورتوني، ها مين فيكوا هيكشف؟

. لأ إحنا الحمد لله مفيش حد فينا مريض بورم..

فذُهل الطبيب وسأل:

. أومال جايين ليه!

فسبقت أمل مازن في الرد وقالت:

. عارف يا دكتور أنا مبحبش الكدب؛ بابا غاب عننا حوالي خمس سنين و...

فقاطعها مازن وقال:

. مينفعش يا أمل!

فأكملت أمل حديثها قائلة:

. ومعرفناش عنه أي حاجة، و...

هذه المرة قاطعها الطبيب قائلًا:

. أنا دكتور أورام مش دكتور نفسي يا مدام، في ناس بعدك مستنيين دورهم!

فصاحت أمل ضاربة بيدها على المكتب:

. اسمعني للآخر، أولًا أنا مش مدام أنا آنسة!، ثانيًا مش هنجيلك من مدينة نصر للعجمي وأحنا منعرفش أنت دكتور أيه!، اسمع للآخر وهتفهم كل حاجة..

فقال الطبيب بنبرة اعتذار:

. اتفضلي.

. وبعدها انتحرت أختي بسببه، والبيت أتحول لحزن وأخر الأحزان كانت من 3 أسابيع؛ ماما ماتت بمرض السرطان...، يوم وفاتها هو رجع وواجهني بكل وقاحة وقالي إنه كان عنده سرطان وراح اتعالج برة مصر وأنه مكنش عايزنا نعرف حاجة عنه وعن المرض؛ عشان منتعذبش بس هو مش عارف إننا في بعده أتعذبنا أكتر!، المهم طبعًا هو عارف إني مش هصدقه رغم إني من قبل ما أخطي خطوة برا البيت وأجيلك مصدقاه لسبب كدا...، هو المفروض ربنا شفاه من المرض وسابلنا شوية أوراق وتحاليل نعرضها على دكتور؛ عشان نتأكد هل فعلًا هو كان مريض بالسرطان!

فتأسف الطبيب لأمل؛ لقد شعر بالشفقة تجاهها وهو لم يُحسن معاملتها من البداية، ثم قال:

. طيب فين التحاليل دي ؟

كانت الأوراق معي، أخرجتها من حقيبتي ووضعتها أمامه على المكتب، ثم لبث يرتب التحاليل والنتائج حسب التاريخ؛ ليخبرنا بالأحداث من البداية إلى النهاية، ثم أردف يقول وهو ينظر إلى التحاليل:

. أول تحليل فعلًا كان من 5 سنين؛ كان بتاريخ 13 إبريل وظهر في التحاليل أنه عنده ورم في المخ...، في ورقة بعدها بـ7 أيام يعني يوم 20

أبريل تثبت أنه عمل عملية استئصال ورم من المخ في المعهد القومي للأورام عشان يعرفوا هل الورم ده خبيث ولا حميد وغاب في المستشفى كام يوم لحد ما حالته تتحسن من بعد العملية.

ثم وجه حديثه نحو أمل:

. تفتكري الفترة دي كويس؟ كان غايب عن البيت؟

فأخذت أمل تفكر وتحاول التذكر ثم قالت فجأة:

. أيوة أيوة صح، قالنا إنه عنده مأمورية في شغله وغاب حوالي 10 أيام!

ثم أكمل الطبيب حديثه:

. تمام، وفي يوم26 إبريل ظهرت النتيجة؛ الورم كان خبيثا فعلًا..، وواضح أنه سكت على الموضوع فترة، هو سابكوا أمتى وسافر؟

. يوم 8 يونيو!

. يوم 11 يونيو بدأ رحلة العلاج في مستشفى في كندا وكان العلاج مكلف هناك، كل اللي جاي تحاليل بقى عن حالته وهل بتتحسن ولا لأ، في الأول كانت حالته بتدهور جدًا بس حصل معجزة؛ مع الوقت بدأ يتحسن وظل في رحلة العلاج دي 4 سنين، وأخر نتيجة تحاليل بتاريخ 24 ديسمبر من العام الماضي وأعلنت النتيجة عن زوال الورم نهائيًا وكانت الرحلة نتيجتها الشفاء..

فقالت أمل:

. مش قولتلكوا إحساسي أنه مبيكدبش!

ثم سأل مازن الطبيب:

. أنت متأكد من الكلام ده يا دكتور، ده مصير عيلة!

. أكيد يعني مفيش هزار في المرض!، الحمد لله ربنا شفاه بمعجزة..

نظر إلى أمل وقال:

. سامحيه يا بنتي، يمكن تصرفه وتفكيره كان غلط، بس هو في الأخر ماكنش يقصد يأذيكوا في حاجة..

فابتسمت أمل وقالت تُداعبه:

. دلوقتي بقيت دكتور نفسي؟، شكرًا يا دكتور.

ثم ذهبنا إلى إحدى الفنادق وأخذتُ أنا وهي غرفة، ومازن غرفة أخرى وقررنا البقاء هنا أيام..

حقًا "إنَّ بعض الظنِ إثم"؛ لقد أساء ظننا في أبيها حتى علمنا كل ما في الأمر، ولكن سوء الظن ذلك هو من تسبب فيهِ منذُ البداية، وحتى بعد معرفة أمل بالحقيقة لا بد أنها ما زالت تأخذ منه موقفًا رديئًا لما فعل دون أن يخبرهم من البداية، وإلى أين أخذتهم الرياح الآن؟؛ لقد أطاحت بهم واحدة تلو الأخرى وأخذتهم إلى سبيل الحُزن لا مفر منه إطلاقًا... كان يجب إخبارهم ومشاركتهم له في محنته؛ لقد وجدتُ يومًا رسالة على منزل مُعتم دومًا تقول:

"لستُ بخيلًا كما يظن جيراني، كما يظن كل من مر من أمام المنزل ليلًا يسُب المنزل وصاحبه، لستُ كذلك... لقد أقسمت في يوم زواجي أن أُشارك زوجتي كل شيءٍ، بعد سنوات من زواجنا أُصيبت بالضرر في حادث سير؛ فأردتُ مُشاركتها في محنتها وعدم رؤية شيء لذلك منزلي مُظلم دائمًا.."

في اليوم التالي من إقامتنا أفقت من نومي على صوتها:

. هستناك يا بابا في الفندق، واخدين أوضتين وهتنام مع مازن في الأوضة التانية، بحبك.

الفصل الخامس عشر

القلوب التي تُسامح بكل يُسر، تلك القلوب التي إذا تعلقت بك ستُسامحك مهما بلغتَ نحوها من جرائم وآثام؛ القلوب التي إذا تعمدتَ إغراقها وفرت من الغرق، ثم سنحت لها الفرصة بإغراقك لن تفعل بل ستنقذك، القلوب التي إذا ألقيتَ بها في النيران لن تقترب منك خوفًا من أن تمسك جمرة من النيران، القلوب التي إذا ألقيتَ بها في كومة قش سوف تكون جبالًا إذا أردتَ التمسك بشيءٍ صلبٍ، القلوب التي إذا أصبحت فتاتًا كالرمال بسببك سوف تكون إليك صخورًا تنقش عليها حُزنك، القلوب التي مهما تكن ظامئة المشاعر لن تبخل عليك بمشاعرها المُتبقية... تلك القلوب النادرة وعلى وشك أن تنقرض وحدها من تستحق التضحية، وحين تُضحي من أجلها؛ أُقسم بأنَّ ما تبقى من عمرها ستوهبه إليك وستنعم بالكثير من التضحيات مُقابل تضحية واحدة فقط منك، لا تفقد الأمل في البحث عن تلك القلوب النادرة؛ تشبث بحبل الأمل في البحث عن قلب من وسط تلك القلوب، وإذا وجدت ذلك القلب؛ فتشبث به كما تشبث بحبل الأمل فأنت حينها تمتلك كنزًا نادر الوجود في تلك الحقبة الزمنية، وتنعم بذلك الكنز غير القابل إلى الفناء..

كان قلب أمل من ضمن تلك القلوب؛ التي تُسامح دون نظر إلى ماض انتهى وتُطوي صفحته دون النظر إليها مُجددًا، بعد خمس سنوات من العذاب والألم، خمس سنوات فقدت نطق كلمة "أبي"، خمس سنوات كانت تصطنع السعادة، شعرت بتلك السعادة الحقيقية وهي تُحادث أبيها في الهاتف وتنطق بتلك الكلمة التي افتقدتها طويلًا، كانت تقف أمام الهاوية التي دائمًا تمنيت أن تُلقي نفسها منها، لكن هذه المرة تمنت أن تبقى لعمرٍ طويلٍ في حضن أبيها

عوضًا عن كل ما قد مر بها، كان الطقس يُداعبها أيضًا؛ الهواء يتلاعب بخصلات شعرها، يأخذه يمينًا ويسارًا وتُغمض عينيها من شدة الهواء، كانت سعيدة حقًا وتنتظر أبيها لتُعانقه عناقا غاب أعواما... هبطت من سريري وتقدمت نحوها وقلتُ وأنا أنظر مثلها إلى البحر الذي يُقابل الفندق:

. سامحتيه بكل سهولة؟

نظرت إلي بابتسامة تكسو وجهها وأردفت قائلة:

. يمكن هو المُذنب في كل اللي حصلنا، بس أذنب من غير قصد، أذنب وهو كان نيته أنه ميعذبناش بمرضه، أذنب وهو كان عاوز السعادة تفضل في البيت وميكونش هو السبب في ضياعها، بس ضاعت... بس هو رجع وهيرجع السعادة للبيت تاني، ماما وأختي حوالينا دايمًا، هيفرحوا لما يلاقوا الفرحة دخلت البيت.

فسألتها:

. صح، سمعت منك أنه جاي؟

. أيوة، أنا عاوزة أفضل هنا فترة أغير جو، أنا مستنياه وكلي حنين وشوق لحضنه يا أميرة، حضنه يا أميرة اللي أتحرمت منه سنين... جاي وهنقعد هنا فترة، لو أنتي ومازن عاوزين تسافروا القاهرة عشان دراستكوا؛ متعلقوش نفسكوا بيا، أنتوا وقفتوا جمبي وقفة أخوات بجد ومش عاوزة أجبركوا على..

فقاطعت حديثها بعناق شديد الحرارة وقلتُ:

. متكمليش يا أمل، أنا مش مجبورة على شيء، بالعكس أنا اللي كان قصدي أجيبك هنا عشان تبعدي عن جو البيت الحزين، أنتي

أختي وأمي وبنتي يا أمل، أنا فرحانة ليكي أوي، ربنا يديم الفرحة دي عليكي يا أمل..

انتهى حديثنا بقُبلة وضعتها أمل على خدي؛ فقلتُ مازحة:

. لو حد شافنا هيفهمنا غلط.

فضحكت أمل ودخل علينا مازن ونحن نضحك، سألنا عن السبب لكي يضحك معنا وما سبب تلك السعادة العارمة، فقلتُ له ما حدث وكان سعيدًا أيضًا لها مُتمنيًا عدم زوال تلك الابتسامة على وجهها، وأخذ يُغازل فيها وكأنه زوجها كما قلتُ مُسبقًا، بينما أنا ما زلت أنظر في الهاتف كل حين أنتظر مكالمة ماهر؛ لكي يُغازلني أيضًا بكلماته..

ولأنَّ دائمًا يحدث عكس ما أتمنى تمامًا؛ فبعد ساعة رن هاتفي وكان من يُهاتفني هو إبراهيم الأخ الأكبر ليوسف كما ذكرت مُسبقًا، تعجبت ماذا يُريد؟، كان رقم هاتفه هو معي أعطته لي أمه في أسبوع الإجازة الذي أخذته من أجل يوسف؛ إذا احتجتُ أن يصل بي إلى مكانٍ بعيدٍ بعربته، لكنني لم أتصل به قط!، لم أطل في التفكير فأجبت على الهاتف وقال بصوتٍ فيه الكثير من الخجل:

. أميرة صح؟

. أيوة يا إبراهيم أنا أميرة.

. أنتي أخبارك أيه؟

كل ما كان يدور في ذهني ماذا يُريد؟، هل هاتفني لكي يسألني عن حالي وما غير ذلك؟، بالطبع لا... كنتُ أُريد أن أسأله مُباشرةً لماذا أتصلت بي!، ولكن لم يكن من الذوق فعل مثل ذلك الأمر مع ابن خالتي، قلتُ:

. بخير الحمد لله.

ثم سألته عن حاله وحال أخوته وأمه والعائلة ولو طال الحديث أكثر كنت سأسأله عن حال الجيران، ثم صمتنا ثوانٍ قليلة وأعاد الحديث قائلًا:

. هسألك سؤالا وأنتي متسألينيش ليه.

. المُعادلة مش عادلة بس تمام أسألني؟

فأخذ نفسًا سمعته من الهاتف وسألني:

. بتحبي الشخص اللي كنتي واقفة معاه عند المستشفى؟

ذُهلت من سؤاله فأجبت:

. أنت سألتني قبل كدا عند المستشفى وقولتلك إن مفيش بينا أي حاجة، مجرد صديق قديم وأخ، بس ليه مش فاهمة المغزى من سؤالك العجيب ده؟

فأعاد السؤال مرة أخرى بصيغةٍ مُختلفة:

. قولتلك متسألينيش ليه... طب أنتي مبتحبيش أو في علاقة؟

. لأ يا إبراهيم!، مبفكرش في الكلام ده خالص، أنت عارف إني في كلية هندسة وعندي مشاريع وكلية مش فاضية فيها للكلام ده.

فقال بقليلٍ من الخجل:

. تمام، شكرًا يا أميرة ده بس اللي كنت عاوز أعرفه.

كان فضولي يدفعني إلى معرفة ما يدور في عقله، من أجل ماذا يسألني تلك الأسئلة وأنا في حياتي لم أره سوى بضع مرات!، فسألته مجددًا:

. ليه يا إبراهيم بتسألني الأسئلة الغريبة دي؟

. متفكريش في حاجة، هتعرفي كل حاجة قريب متقلقيش يا بنت خالتي.

ثم شكرني على إجاباتي وأنهينا حديثنا بالسلام، سألاني مازن وأمل من كان يُحدثني وعن ماذا كنت أضحك؛ فقصصتُ عليهم الحديث الذي دار بيننا في الهاتف وتعجبا مثلي ثم قالت أمل وهي تدفع كتفي:

. وقعتي كل الناس في حبك، حتى الشيخ إبراهيم ده شكله وقع في حبك.

فضحك مازن وقال هو الآخر:

. حب أيه بس ده شكله بيعشقها يا أمل.

أخذنا نضحك ونضحك على ذلك الأمر إلى أن وصل والد أمل وهاتفها وقال لها إنه وصل الفندق للتو..

انفرجت أسارير أمل؛ كعصفورة حديثة الولادة كانت مُقيدة في قفصٍ ممنوعة من رؤية والدتها، ثم نالت حريتها وطارت مُسرعة إليها، كطفلة كانت تنتظر والدها القادم من عمله وجاء مبكرًا، وهي لم تره منذ أيام بسبب أنه يأتي متأخرًا إلى المنزل، حتى وأن كان يطبع على خدها قُبلة كل يومٍ إلا أنها كانت تنتظر لقاءه؛ لتطبع هي على خده قُبلة فيها الكثير من الاشتياق... كانت مجهزة نفسها لرؤيته؛ ترتدي فُستانا بني اللون مع حذاء فضي اللون بكعبٍ وشعرها كان نائمًا على فستانها يُكمل تلك اللوحة المُبهرة، ركضت نحو الباب وهي تقول:

. خليكوا هنا هجيبه وأجي.

نزلت واستقبلته بكل حفاوة؛ عناق طال لدقائق ودموع تهبط على بذلته البُنية أيضًا، وقُبلاتها تهبط على ذات المكان الذي هبطت فيها دموعها وقُبلة على خده، ثم أخذته وصعدت به إلينا، استقبلناه

بحفاوة ليست طبعًا بحفاوة ابنته، شكرنا جميعًا على وقوفنا بجانبها وشكرني أنا خصيصًا، بالطبع هذا المنظر دائمًا ما يُحدث فيّ رعشة؛ ناتجة عن أنني لم أُجرب شعور أمل من قبل، ليس حقدًا أو حسدًا، ولكن ذلك العناق والقُبلات ومُعاملتها كطفلة تلك أشياء افتقدتها ولم أذق من جمالها كوبًا واحدًا، ولكنني بالطبع كنت سعيدة من أجلها؛ لقد عانت حتى نالت ذلك المقدار من السعادة، فهل يا الله بعد مُعاناتي سأنال شيئًا؟

على كل حال، جلسنا جميعنا في غُرفة واحدة نتناول الغداء بعدما غير أبوها ملابسه وهي أيضًا، وعلى طاولة الطعام ودار بينا حوار كانت نهايته لم يتوقعها أحد، قال الأب أولًا:

. واضح عليكوا الطيبة والأخوة اللي جواكوا تجاه أمل، بشكركوا تاني على كل شيء.

فقالت أمل:

. هما أخواتي اللي طلعت بيهم من الدنيا بعد أختي الله يرحمها...، هما من ضمن العيلة يا بابا.

. طبعًا من ضمن العيلة وأنا دايمًا هكون أب ليهم زيك وموجود في أي وقت.

كان مازن ينظر إلى أمل وكأنه يريد أن يقول شيئًا، لكنني سبقته وقلتُ:

. أمل دي شعاع النور اللي لقيته وسط كون مظلم، أمل جميلة وطيبة وقلبها بيسامح بسهولة وهي أخت ليا أكيد، أخت هتسند عليها لو حسيت إني هقع، أخت بشاركها كل تفاصيل حياتي، هي فاهماني وفاهمة كل اللي بيدور جوايا في قلبي، فاهمة كل اللي بفكر فيه بعقلي،

بحبها أكتر من حبي لإسكندرية وفيروز والشتا وماهر... بما أنك أبويا يعني فأكيد هحكيلك قريب مين ماهر، المهم إني مش هتخلى عن أمل أبدًا، مش هتخلى عن أختي وأمي وطفلتي.

ثم قالت أمل:

. ربنا يخليكي ليا أنتي وأخويا التاني مازن.

وأثناء قولي يارب؛ أردف مازن يقول بنبرة صادقة:

. بس أنا مش أخوكي..

نظر إليه أبوها وقال بتعجب شديد:

. تقصد أيه؟، إنك مش بتحبها؟

فنظر إلى أمل وأمسك بيديها وقال:

. بحبها بس مش زي أختي..

فقالت أمل:

. بمعنى؟

تنهد مازن وقال:

. أنا بحبك يا أمل، بعشقك!

ثم نظر إلى أبيها وهو ما زال مُتشبث بيديها وقال:

. بالمناسبة دي أنا بطلب أيد بنتك أمل!

***

الفصل السادس عشر

قال مازن تلك الكلمات وفي عينيه لمعانٍ شديد؛ قد لا يخلو ذاك اللمعان من الخوف، كان يخشى أن يرفض أبوها، أن تنقلب عيناه من شدة توهجها إلى ظلام؛ فشدة التوهج قد يُحرق المصباح..، كان مُتشبثًا بيديها ويخشى أن يُطيح الأب بيده، يُطيح بقلبه أشد إطاحة ويقطع حبل الأمل الذي وجده في تلك الفتاة التي تغيرت ملامحها تمامًا؛ نعم فهي سمعت حديثا لم تتوقع أن تسمعه يومًا، وإذا سمعته فمن القائل؟؛ مازن الذي كانت تقول له منذ لحظات أنه أخوها!، شحب وجه أمل رغم اعتقاد مازن بأنه سيلقى بريقًا على وجهها، أخذت تبتلع ريقها وتبتلع ذلك الحديث الذي ألقاه مازن؛ تبتلعه في عقلها، تفكر هل تُغامر هي بالحديث للرد عن طلب الزواج، أم تدع أباها هو من يُبادر بالرد، ابتسم الأب وقال:

. أنا موافق طبعًا، رأي العروسة أيه؟

انفرجت أسارير مازن، كان كل شيء بداخله يبتسم، شعر بدفء شديد في قلبه عندما وافق الأب، ولكنه في ذات الوقت شعر ببرودة شديدة من يد أمل؛ بعدما كانت دافئة؛ فانحنى تجاه يديها يُقبلها، يُحاول تدفئة يديها بتلك القُبلة، وإذا به يقول وهو يُقبلها مغمض العينين:

. رأيك أيه يا عروسة؟

صمتت أمل لحظات دون أن تنطق بكلمة؛ كان خلف صمتها ضجيج شديد في شتى أرجاء قلبها، كانت هادئة كالصحراء وبداخلها ضجيج المُدن، كان الهدوء الذي سبق العاصفة؛ نعم عاصفة شديدة الرياح هبت فجأة دون توقع... سحبت أمل يدها من مُلامسة شفتي

مازن، كان لا يزال يُلامس أطراف أصابعها الناعمة بشفتيه الظمئة التي ازداد ظمؤها حينما سحبت يديها، ألقت بالملعقة من يديها الأخرى على الطاولة، عادت بالكرسي التي كانت تجلس عليه إلى الوراء؛ ليفسح لها المجال إلى قيامها، قامت من مجلسها وهي تقول:

. أسفة يا مازن... مش هقبل الجواز.

كنتُ لا أتنبأ بالخير مند أن أقدم مازن على طلب الزواج المفاجئ؛ فهي لم تُحدثني عن الإعجاب به مسبقًا، أو ذرة مشاعر الحب الحقيقي تجاهه، كانت دائمًا تقول "إنه أخي الأكبر"، مازن أيضًا لم يخبرني قط بشيءٍ من هذا القبيل، لكنني على الأقل كنتُ أرى في عينيه الغيرة، أشعر في كثيرٍ من الأحيان أن بداخله شيئا؛ سرا يكتمه يُعذب قلبه، شعرت به كما يشعر بي، لكنني لم أتخيل ولو لبرهة أن ذلك السر هو حُبه لأمل!، آه يا مازن كم ستُعاني الآن آلاما، الأمر مريب؛ فالسر الذي كان يحرق جزءا من قلبه أفصح عنه؛ فأحرق قلبه كليًا دون أن يجد ما يُطفئه..

وقف الأب من مجلسه أيضًا وأربط بكفيه على كتف مازن يواسيه ثم خرج وراء أمل، أما أنا بقيت بجانب مازن المصدوم؛ كان ينظر إلى الحائط وكأنه يخترقه بعينيه، رغم مواساة الأب على كتفه ألا أنه لم يشعر بأي نوع من المواساة، وكأن كتفه خُلع من الصدمة، كما خُلع قلبه من مكانه، حاولت أنا مواساته؛ حركت الكرسي بجانبه، أمسكت بيده التي أفلتتها أمل وقلتُ:

. هي بس مكانتش متوقعة أبدًا إنك في يوم تطلب أيدها، هي كمان مصدومة، صدقني هتوافق بعدين..

قال وهو ما زال يُحدق بعينيه في الحائط ودمعته تقف على جفونه:

. لأ، أمل لا يمكن توافق، أنا حسيت إحساسا قويا أن في قلبها شخصا غيري، اللي بيحب بيحس بللي بيحبه؛ كان صعب عليا جدًا إني أحس بحبها لحد تاني..

فأمسكت بصدغيه ووجهت رأسه تجاهي وقلتُ:

. أمل بتحب!، لا يمكن هي مقالتليش أي حاجة من الكلام ده، أمل لو بتحب كانت حكتلي من زمان!

حينها هبطت دمعته على المنضدة وقال:

. طب ما أنا محكتلكيش إني بحبها؛ هل فكرتي ولو لحظة إني بحبها، إني ممكن أطلب أيدها في يوم، أمل بتحب يا أميرة، وهستنى اليوم اللي هتعلن عن حبها..

صمتنا لحظات ثم قلتُ:

. طب هتعمل أيه دلوقتي؟، حاول معاها تاني..

. يا أميرة لو أنا كنت حسيت بذرة حب تجاهي كنت هحاول أكيد، اليأس يا أميرة؛ يئست من أول محاولة، أنا كنت خايف من ردة فعل أبوها، كنت هحاول ألف مرة لو الموضوع يخص أبوها بس هي تكون ماسكة فيا، ردة فعلها هي اللي دخلت في قلبي اليأس، هي ممسكتش، ولو حاولت ألف مرة هفشل..

كان حديثه يخترق قلبي، أنه على حق ولكن بالطبع لن أقول له هذا؛ فأزيد يأسه أضعافا... أضاف قائلًا:

. هقوم أحضر شنطتي وهسافر على القاهرة، أنا أسف يا أميرة مش هقدر أجي معاكي أشوف يوسف، بس هجيله في يوم تاني، سامحيني..

قال تلك الكلمات وكنت أشعر بقلبه المنكسر، كان يبكي؛ ليست عيناه فقط، قلبه كان يبكي وبداخله خليط من الأحزان؛ اليأس، البؤس، الوحدة، عزلة قلبه... وقف وذهب إلى غرفته، ذهبت خلفه أُلاحقه، كان يُحضر حقيبته للعودة، تطبع دموعه على كل ملبس من ملابسه وتترك عليهم آثار حزنه، قلتُ إليه:

. عشان خاطري خليك..

. بتقولي كدا وأنتي عارفة أن رجوعي للقاهرة أفضل حل، متخالفيش إحساسك بيا يا أميرة، هتوحشيني..

قال تلك الكلمة وهو يغلق حقيبته مُعلنًا رحيله، وكأنه يغلق أمامي أية آمال لبقائه، ثم قال:

. عارفة يا أميرة..

فقاطعته وأخبرته بأن ينتظر، ذهبت إليه وعانقته عناق الأخوة وقلتُ:

. قول يا مازن..

. أنا فقدت الأمل في الحياة لما أمل موافقتش..

. لأ يا مازن، أنت تفقد الأمل لما أمل تموت، إنما طول ما هي عايشة إياك تفقد الأمل، أنت كمان هتوحشني، خد بالك من نفسك وطمني عليك..

نزع ذراعي المُحيط به، ثم أخبرني بألا أخاف عليه، أخذ حقيبته ورحل، كان ينتظر صعود الأسانسير؛ ثم تفاجأ بأن الصاعد أمل وأبيها، نظرت إليه نظرة تجمع بين الشفقة والحزن عليه؛ ليست نظرة حب إطلاقًا، سأله أبوها:

. أين ذاهب؟

. مسافر يا عمي، خد بالك من أميرة..

ثم صعد إلى الأسانسير ورحل، الحياة أرجوحة؛ تأخذك إلى السعادة تارة وإلى الحزن تارة أخرى، ولكن على مقدار تحكمك في الأرجوحة ستلقى مصيرك، تحكم في الأرجوحة كما يتحكم عازف الناي في نايه؛ فيُمكن أن يعزف حُزنًا إذا كان حزينًا وفرحًا إذا كان سعيدًا، ويُمكن أيضًا أن يعزف فرحًا إذا كان حزينًا فهو الحاكم على نايه.

بعد بضع ساعاتٍ قررنا الذهاب إلى يوسف في المشفى؛ ولكننا عندما ذهبنا إليه وجدنا أنه غادرها وقال الطبيب المتخصص في حالته عندما سألناه عليه:

. يوسف بقى كويس جدًا؛ خرج من المستشفى من كام يوم وروح هيكمل علاج في البيت.

فسُررت أنه بات بخير الآن، ولكن كان هُناك مشكلة؛ تقبع في ذهابي إلى منزله خوفًا من أن يكون أبي هُناك، أو أحد يراني ويُخبره، فجاءتني فكرة أن أتصل بإبراهيم أسأله من هناك، ثم هاتفته فأجاب سريعًا وكأنه ينتظر تلك المكالمة منذُ أعوام، فقال:

. في حاجة يا أميرة؟

. بص أنا جايبة واحدة صاحبتي وباباها هنا إسكندرية كام يوم فقالوا عاوزين يزوروا أخوك يوسف بالمرة، وروحنا المستشفى قالوا خرج وعاوزين نيجي البيت.

فقال مسرعًا:

. وأيه المشكلة ينورونا!

. المشكلة مش فيهم، المشكلة فيا أنا؛ مش قايلة لحد من أهلي إني هنا وبابا لو عرف إني سايبة دراستي وجاية من وراه هيقتلني، أتصلت بيك عشان أسألك هو عندك أو حد تبعه عندك؟!

. لأ مفيش حد هنا في البيت غيري أنا ويوسف أصلا، كلهم برا متخافيش هاتيهم وتعالوا.

لم أعد خائفة عندما طمأنني إبراهيم، ذهبنا إلى المنزل واستقبلنا إبراهيم بحفاوة شديدة، كان وجهه مشرقًا كالشمسِ، يرتدي جلبابه الأبيض؛ يبدو بأنه لا يرتدي غير الجلاليب البيضاء، وحقًا كانت، لائقة على إشراقة وجهه، ثم أخذنا إلى غرفة يوسف النائم على سريره، فاعتدل فورًا عندما قال أخيه:

. الضيوف وصلوا يا يوسف.

دخلتُ وصافحته، ثم دخل الأب وصافحه، وكان في دخول أمل شيء غريب؛ كانت تنظر إلى الأرض ويوسف ينظر إليها بغرابة شديدة وكأنه يرى شخصًا قد رآه مُسبقًا، بالكاد أنه لم يتذكر شيئا فهو فاقد ذاكرته، ولكن كان دخولها كقطعة معدنية هبطت على رأسه، ثم نظرت إليه وكأنها أيضًا تعرفه وابتسمت ومدت إليه يديها وقالت:

. أزيك يا يوسف.

أكاد أُقسم بأنني إذا كنتُ يوسف في تلك اللحظة؛ سأُشفى فورًا من رقة الكلمة، كان نُطقها "يوسف" كالدواء لأية داء، خرجت الكلمة من فمها إلى أذنه وكأنه استمع إلى معزوفة، كانت الكلمة تتراقص في أذنه، ثم انحنت إلى سريره لتُصافحه بيديها وهي تقول "ازيك يا يوسف"، ولكن يبدو بأن يوسف قد تاه في عطرها الفواح، ثم أمد يده إليها ونظر إليها وقال بنفس رقتها:

. أنا كويس.

فقلتُ بصوتٍ عالٍ؛ لننتهي من تلك المُقابلة الرقيقة:

. دي أمل يا يوسف صديقتي اللي أنت سألتني عليها لما كلمتها في التليفون، وده باباها، حبوا يزوروك.

فقال وهو ما زال ينظر إلى أمل بدون مبالاة إلى أبيها:

. نوروا البيت طبعًا.

ثم أعاد قائلًا:

. نورتي يا أمل!

شعرتُ بأن ذلك الصوت لم يُصدر من فمه، بل من مصدر آخر؛ نعم من قلبه، شعرتُ بأن قلبه هو المسئول عن تلك الجملة، كانت الجملة خارجة من صميم قلبه وكأنه يقول إليها "أنرتِ قلبي المُظلم يا أمل"، ثم قال إبراهيم:

. اتفضلوا أقعدوا يا جماعة.

جلسنا وذهب إبراهيم لإحضار شيء مُستأذنًا، وما زالا ينظران إلى بعضهما نظرة الأحبة، كانت عين أمل براقة لأبعد الحدود، كذلك يوسف الذي ظننتُ بأن العطر قد أحدث فيه تأثيرًا شديدًا، نعم كانت أمل جذابة أكثر من عند رؤية أبيها، ارتدت أفضل ما لديها من ثياب، وارتدت القلادة الفضية التي أحضرها إليها أبوها، وضعت أحمر الشفاه، كانت جميلة ورقيقة وجذابة فوق العادة، ولكنني قطعت نظراتهما إلى بعضهما وقلتُ:

. يوسف؟ صديقك المقرب ماهر بيزورك؟

فنظر إلي وكأنه كان في حلمٍ جميل وفاق من حلمه وقال:

. بيزورني كل يوم تقريبًا!

يزوره كل ليلة ولم يزر هاتفي ليلة واحدة... هل ضاع رقم هاتفي منه!، لماذا ظهرت في حياتي فجأة يا ماهر واختفيت فجأة أنسيت عندما كادت السيارة أن تصدمني فقلتُ "لن أدعكِ تضيعين مني مجددًا"، يبدو كعادتك فعلًا بأنك قد نسيت يا ماهر؛ أنت دائمًا تنسى ما يخصني، لم ولن يهمك أمري أبدًا، لقد وضعت كوبًا من الأمل أمامي وأنا كنت شديدة الظمأ؛ فإذا بي أخذته لأشربه ولكنك انتشلته من يدي وتركت الظمأ يقطع في قلبي... لقد سلبت مني كل شيء؛ قلبي ومشاعري وعيناي وأذني.. إلخ، فقلبي ملكٌ لك منذ أن وُلدت، مشاعري لا تذهب لأحدٍ سواك، عيناي تراك في أوجه الجميع، أذني أشعر دائمًا بأنك تُتمتم فيهما، ما زلت أنتظرك يا ماهر، عُد قبل فوات الأوان... كانت تلك الكلمات تدور في ذهني، كنتُ صامتة وأفكر فيه، صاح في أذني فجأة إبراهيم وهو يقول:

. أميرة!!

فهززتُ رأسي ونظرت إليه وقلتُ:

. نعم..

. بتفكري في أيه يا بنتي بقالي ساعة بقولك خدي العصير

. أسفة يا إبراهيم..

ثم أخذتُ من يديه عصير المانجو الذي حضره بنفسه وابتسمت إليه، ثم بدأ إبراهيم يحكي إلينا مغامراته في الطبخ عندما كان في السعودية؛ إن الغربة قد عودته على الطبخ بنفسه وأنه يطبخ أفضل المأكولات وأشياء من ذلك النوع، وكان ينظر لي كثيرًا عندما كان يقص قصته، ما زلت أفكر أيضًا في تلك المكالمة التي هاتفني فيها والشيء

الذي أخبرني بأنني سأعلمه عندما يحين وقته، فإذا بيوسف يُوجه سؤالًا فجأة مُقاطعًا أخاه؛ كان السؤال إلى أمل فقال وهو ينظر إليها:

. أنتي مخطوبة أو متجوزة يا أمل؟

فأخذ أبوها مُبادرة الرد وقال:

. لأ بنتي يا يوسف لسة متخطبتش، بس سؤالك جه في وقته، أتقدملها عريس كويس جدًا رفضته وهو زميلها من فترة كبيرة ومعرفش ليه رفضته، حتى هو كان هيزورك النهاردة معانا بس سافر لما رفضته..

فغضبت أمل وقالت:

. بابا!، قولتلك مش حاسة ناحيته بحاجة غير أخ، هتجوز أخويا وأظلم نفسي وأظلمه معايا!

فدخل إبراهيم في المُناقشة مُستأذنًا:

. بعد إذنكوا يعني، أنا شايف أنه كان يستحق الفرصة..

ثم أضاف وقال شيئًا أثار غضب قلبي:

. يعني مثلًا، مثلًا لو أنا أتقدمت لأميرة وهي شيفاني أخوها مش أكتر، مش يمكن لما تديني الفرصة قلبها هيتفتحلي وهتحس بحب حقيقي تجاهي، الحياة فرص ولازم الإنسان يستغل الفرص، حتى لو مستغلهاش فيجرب مش هيخسر حاجة؛ عشان منندمش بعدين على ضياع الفرصة، وخايف تندمي على ضياع فرصتك دي يا أميرة.

ثم أدرك ما قال وصحح خطأه:

. أسف..، قصدي يا أمل!

ثم دخل يوسف أيضًا في المُناقشة فجأة دفاعًا عن أمل، فقال ردًا على أخيه:

. القلب بيحس بالحاجة من أول مرة، نفرض أن مثلًا زي ما بتقول أميرة وافقت عليك وهي بتحب حد تاني، ثم اكتشفت أن إحساسها تجاهك متغيرش؛ ساعتها هتكون خسرت كتير أوي؛ خسرت الشخص اللي بتحبه، خسرت فترة من حياتها، خسرت نفسيتها لما الناس يبدأوا يتكلموا عن أنها فسخت خطوبتها، وقتها بردو هتندم على أنها أعطتك الفرصة واتدمرت هي، الإنسان لازم يكون أناني أحيانا عشان يقدر يعيش، بالذات في الوقت ده من الزمن؛ لأن التضحية أصبح الكل بينكرها فيقولوا أناني أحسن ما ينكروا التضحية!

لقد فقد يوسف ذاكرته، لكنه لم يفقد أبدًا عقله الواعي الناضج، كان لحديثه تأثير فعال في قلوب الجميع، ثم قالت أمل:

. بالظبط كدا يا يوسف!

وبعد دقائق وقف والدها وقال:

. فرحنا بزيارتك أوي يا يوسف، ألف سلامة عليك، نستأذن إحنا بقى..

حزن يوسف؛ فيبدو بأنه أحب مجلسنا أو أحب مجلس أمل وعينيها... حتى أنه لم يلق بالًا لي طوال المجلس، قال إبراهيم بأنه يأمل في زيارة أخرى وودعناهم وخرجنا وإبراهيم ينظر لي ويوسف يحدق في عين أمل..

ذهبنا إلى "آيس كريم عزة" المشهور في الإسكندرية وجلب والد أمل لنا كل واحدة كوبين منه، ثم ذهبنا إلى الكورنيش، وعدنا إلى الفندق الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل وقد اتفقنا على العودة غدًا إلى القاهرة بعد أن أقنعنا والد أمل من أجل دراستنا، وفي الساعة الواحدة ليلًا أثناء حديثي مع أمل عن يوسف ونضجه، بينما والدها كان في الغرفة الأخرى من الفندق رن هاتفي وكنتُ أضعه على

الشاحن!، كنت أعتقد بأن ماهر هو من يُهاتفني وقد هبطت عدالة السماء أخيرًا ولكنني فوجئت بأن يوسف هو من يتصل بي، ظننتُ أيضًا بأنه سيُحدثني عن جمال أمل ولكنه قال وهو يلهث بصوتٍ مرتجف:

. أميرة!

فقلتُ بتعجب من صوته:

. نعم!..

فأردف قائلًا:

. أميرة أنا أفتكرت كل حاجة، ذاكرتي رجعتلي وافتكرت كل حاجة، ماهر هنا معايا، تعالي وهاتي أمل معاكي، أمل يا أميرة متنسيهاش عاوز أعترفلكوا بحاجات كتير أوي، متنسيش أمل!!!

***

الفصل السابع عشر

. أمل!!!

كانت أمل نائمة على السرير، في يدها هاتفها وتبتسم ابتسامة عريضة؛ يبدو بأنها تتأمل صورة أحد ما، لم ترد علي في أول مرة، فتقدمت إليها ولمحتُ شيئًا غريبًا؛ صورة يوسف نعم صورته!، وحين رأتني اقتربت منها؛ وضعت الهاتف بجانبها، لم أسالها على الصورة، قلتُ بسرور شديد:

. يوسف يا أمل!

فنهضت مضطربة؛ كانت تحسب بأنني أتحدث عن الصورة ولكن زاد اضطرابها أكثر حينما قلتُ:

. يوسف ذاكرته رجعتله وافتكر كل حاجة!

كان اضطراب وجهها في ازدياد منذ أن أخبرتها، نهضت على الأرض وسألتني:

. مين اللي قالك كدة!

. يوسف اللي اتصل بيا دلوقتي وقالي، قالي كمان أن ماهر معاه هناك، وقالي هاتي أمل معاكي وقالها كذا مرة مش مرة واحدة، أكد عليا مروحش من غيرك، قال عاوز يعترف بحاجات كتير!،

ارتجفت أمل وكأنني أخبرتها شيئًا سيئًا لا يُسعدها قط، نظرت تجاه النافذة وقالت:

. هنروح دلوقتي الساعة 1!!

. هناخد تاكسي يا أمل، بس لازم نروح ولازم تيجي معايا مش هتسيبيني اروح لوحدي وكمان هو مأكد عليا مروحش من غيرك، يلا ألبسي بسرعة.

ذهبت تجاه حقيبتها لترتدي ملابسها وأنا كذلك، كان المشهد مُتناقضا؛ حتمًا أنني سعيدة للغاية من أجل يوسف، ومن أجل أنني سوف أرى ماهر وجهًا لوجه مُجددًا، سيذكرني الأمر بطفولتي: عندما كنا نذهب إلى منزل يوسف نلهو نحن الثلاثة طوال النهار، أما أمل فكانت ترتجف كما الطفلة التي ذاهبة إلى الطبيب خائفة من أن يعطيها إبرة، حتى أنها كانت ترتدي ملابسها ببطء بينما أنا ارتدي بسرعة اشتياقًا إلى الذهاب، من يراها قبل أن أخبرها بالأمر لن يعرفها الآن، زالت تلك الابتسامة وأصبح وجهها أصفر كما قشرة الليمون، وبعد ربع ساعة جهزنا أنفسنا ونزلنا آخذين "تاكسي"، كانت أمل في الطريق تهز قدمها من شدة توترها، ثم رن هاتفي والمتصل يوسف بالطبع؛ كان يستعجلنا وسألني هل أمل معي فأخبرته بأنها معي، ثم بعد دقائق وصلنا إلى المنزل والظلام كان يعم المنطقة باستثناء مصباح أمام منزل يوسف، ثم فتح لنا ماهر الباب حينما سمع صوت التاكسي، كان الجميع نائمين والمنزل صامت باستثناء غرفة يوسف التي كانت التمتمة تعمها، نظرت إلى ماهر نظرة لوم وشوق في ذات الوقت عندما أخذنا إلى الغرفة، كانت تحت عينيه تجاعيد كثيرة زادت عن المرة السابقة التي رأيته فيها، وكانت أمل ما زالت ترتجف، بينما في الغرفة يوسف في سريره وبجانبه أخوه إبراهيم، يوجد ثلاثة مقاعد فإذا بنا نجلس على صوت يوسف وهو يقول:

. لأ، تعالوا على السرير هنا..

جلستُ أنا وماهر في جانب وفي الجانب الآخر أمل التي كانت تنظر إلى الأرض، عكس ما صدر منها نهار تلك الليلة عندما كانت تنظر في عينيه فقط، ثم بدأ يوسف في الحديث قائلًا:

. أنا عارف إنك يا أميرة أكتر شخص هيتأذي من اللي هقوله ده، بس صدقيني لو أنا عملت شيء أذاكي في يوم فكان عشان متتوجعيش بعدين، بس جه الوقت اللي أقول فيه كل حاجة!، بس خلي موضوعك للأخر..

نظر إلى أمل وقال بابتسامة:

. عاملة أيه يا حبيبتي!

نظرت إليه وتمتمت بصوت خافت قلق:

. أنا كويسة..

فقلتُ بصوتٍ عالٍ وغرابة شديدة:

. حبيبتك!!!!

. كانت..

. أنا مش فاهمة حاجة!

فأردف قائلًا:

. اسمعيني للأخر... أمل كانت حبيبتي لحد يوم الحادثة، عرفتها من سنتين عن طريق الفيس بوك، مش أمل بس مازن كمان..

فقلتُ مقطبة الحاجبين:

. مازن!!

. أيوة أمل ومازن عرفتهم وأنتي كنتي لسة في 2 ثانوي، هما طبعًا أصغر مني بس كنا بنتزل نتقابل وكنا أحنا الـ3 أصحاب أوي، كنت أناني في أمل؛ بغير عليها حتى من مازن، وفي يوم من الأيام اعترفتلها بحبي وهي كانت بتحبني وارتبطنا ببعض واتفقنا أتقدملها في 1 جامعة، طبعًا ده كله بمعرفة مازن اللي كان بيحبها بردو!

فقلتُ وأنا أنظر لأمل:

. يعني أنا عرفتها هي ومازن صدفة!

فقالت أمل:

. لأ، يوسف لما عرف إنك روحتى جامعة القاهرة، وأني أنا ومازن في نفس جامعتك وقسم الهندسة؛ اتصل بيا أنا ومازن وعرفنا، طبعًا عشان نتصاحب عليكي بما إنك من طرفه وهو مكنش عاوز يعرفك أنه مرتبط لحد ما يخطبني، بس كان غرضي أنا وهو تاني خالص..

سألتهم وأنا أضحك بسخرية:

. وأيه كان غرضكم!

فقال ماهر فجأة:

. كان غرضهم إنهم يوقعوكي أنتي ومازن في حب بعض عشان مازن ينسى حب أمل وأنتي تنسي حبي..

كان إبراهيم يُتابع الحديث صامتًا، مُستاء مما يحدث ومما يقال بحكم أنه مُتدين ولو قليلًا، ثم قلتُ:

. وطبعًا أنتوا اللي كنتوا هتستفادوا من اللعبة دي، إنما أنا ومازن وماهر نموت بحبنا عادي ده لو ماهر بيحبني يعني!، وطبعًا أنا منستش ماهر ولا مازن نسي أمل بدليل أنه أتقدملها النهاردة وهي رفضت علشانك!

غضب يوسف واحمر وجهه من الغضب وهو يقول:

. اتقدملها!

فقالت أمل:

. أيوة أتقدملي وده اللي كان بيحاول يعمله من يوم لما سبتك؛ يوم الحادثة وقولتله أننا انفصلنا..

. طب أنا دلوقتي عاوز أعرف سبتيني ليه؟!

فقالت أمل وهي تهز رأسها:

. دي الحاجة الوحيدة اللي مينفعش أعترف بيها، إنما أنا بحبك..

فقال يوسف بحزنٍ:

. أمل يوم ما أنتي سبتيني أنا شربت لأول مرة في حياتي وده كان سبب الحادثة وفقداني الذاكرة..

فقلتُ أنا فجأة بتعجب واستغراب:

. ثواني، ثواني!!!؛ ماهر بيتكلم بأنه مظلوم ليه وهو اللي سابني!

فقال يوسف:

. عشان فعلًا هو مظلوم..؛ من كام سنة لما سابك أنا كنت السبب بس والله كنت بخطط أهيئلكوا حياة كويسة لو هو كان أتغير..

. أتغير!، ليه هو كان بيعمل أيه!

فقال ماهر:

. مش كان...، أنا ما زلت بتعاطى مخدرات ومُدمن، التجاعيد اللي بتبصيلها دايمًا وشحوب وشي ده سببه المخدرات، يوسف قالي بطل اللي بتشربه وأوعدك أنها هتكون ليك بس أنا مبطلتش..

قال ماهر تلك الكلمات والدموع تذرف من عينيه ثم أكمل:

. أنا بحبك وعمر حبي ليكي ما قل، بس أنا بكره نفسي أني دايمًا أخترت المخدرات عليكي، يوسف اللي عمله كان صح، لو كنت أتجوزتك

وأنتي عرفتي أن جوزك بيشرب مخدرات وولادنا كانوا هيعرفوا أكيد، كنت هأذيكوا... مش بس كدا؛ لما كمان تعرفوا إني بتاجر في المخدرات دي وهي اللي وصلتني للي أنا فيه ده!

فانقبض قلبي وقلتُ وأنا أذرف دموعي حزنًا:

. تاجر مخدرات!!!!!

وضعت يدي على وجهي وبكيت كما الطفلة، كان الجميع يبكون سوى إبراهيم الذي ما زال يُتابعنا باستياء تام، ثم قال يوسف:

. أنا أسف يا أميرة لو غلطت في حقك، أسف... بس أنا دلوقتي عاوز أعرف يا أمل؛ ليه سبتيني!

فقالت أمل وقد ارتفع صوتها عن بداية الحديث:

. قولتلك لسبب مستحيل أقوله على الأقل مش دلوقتي، كل حاجة وليها وقتها..

. أمل أنا بحبك وزي ما ماهر مدمن المخدرات أنا مدمنك، أشهد على كده يا اخويا إبراهيم بحبها أوي، وأنتي يا أميرة ماهر بيحبك ومدمنك أكتر من إدمانه للمخدرات..

فقال ماهر وهو يمسح دموعه:

. في اعتراف أخير لازم تعرفيه يا أميرة..

انتشل يدي من على وجهي وقال وهو ينظر في عيني وكأنه يخترقها:

. أميرة أنا أسف على اللي هقوله ده؛ أنا متجوز..!

***

الفصل الثامن عشر

رسالة من ريعان شبابي إلي عندما كنت طفلة لم تتكبد عناء الحياة بعد: "جميع أحلامك يا طفلة لم تتحقق باستثناء حُلمًا واحدًا؛ أنني أصبحتُ شابة فقط، الآن لديَّ حُلم وليس سواه أن أعود طفلة كما كنتُ فقط هذا الحُلم.."

الحياة الآن كابوس لا ينتهي، كابوس لم يعد بإمكاني أن أُكمله ولكنني مجبرة على البقاء في ذلك الكابوس، ملخص هذا الكابوس أن قلبي قد قُدم إلى الحُزن، الحزن نعم وليس سواه، الحزن والحب لا يتفقا في أول ثلاثة أحرف فقط؛ بل أنهما يُكملان بعضهما البعض فالحب يُكمل الحزن والحزن يُكمل الحب، هما توأم مُتلاصق، دومًا حُزني ما كان ناتجًا عن حُبي، حُبي يزداد رغم حُزني، ألم ينته ذلك الألم!، ألم يتعلم القلب من أخطائه المُتكررة السخيفة؛ لماذا تُخطو ألف خطوة إلى من يدس فيك الحُزن والذي يتمناك سعيدًا بينك وبينه خطوة واحدة! أجبني أيها القلب الأبله؛ لماذا تزور الحُزن كل يوم وتمنع السعادة من زيارتك بإحدى الحجج؟، لماذا ترى البعيد والقريب تُمثل عليه بأنك ضرير؟، لقد سئمت منك ومن ذلك الذي ما زلت رغم كل شيء تُحبه وتشتاق إليه حتى إذا كان بجانبك، أُوافق فان جوخ "لن ينتهي البؤس أبدًا"..

كانت كلمته تلك أنه متزوج وكأنه أمسك بسيفٍ وهبط على قلبي به فشقه نصفين، لا ليس نصفين لقد قطعه ألف قطعة حتى أنه لم يعد قابلًا إلى عودته كما كان، صمت لم أعلم ماذا أقول، قلبي كان يصرخ من شدة ألم الضربة، ولكن إبراهيم لم يصمت؛ قام من مجلسه ونظر إليه وقال بصوتٍ محشرج وفيه الكثير من الذم:

. أنت إنسان قذر، لا تفقه شيئا في الحب!

رغم أن تكون قلبي كان يتألم من ضربته، إلا أنه لم يتحمل عليه أي كلمة، يا لذلك القلب الأبله حقًا، نظرت إلى إبراهيم وقلتُ وأنا أبكي:

. إبراهيم عن أذنك متكلمهوش بالطريقة دي تاني..

نظر إلي بغرابة مما قلتُ، ثم كان أول المغادرين إلى خارج المنزل، ثم قلتُ لماهر:

. متجوز؟، مين!

كانت أمل ثاني المُغادرين، لا أعلم لماذا غادرت الآن وإلى أين، ولكنني كنتُ أُريد أن أعلم فقط من تلك التي امتلكته، من التي قد لامست جسده وتنام بجانبه كل ليلة، من التي نالت ما حلمت به طوال عمري، من تلك التي تُشارك تفاصيله، ولكنني حينما سألته لم ألق منه أي جواب، كان رافضًا تمامًا أن يقول لي، فقط قال

. أنا أصلًا مش متجوزها رسمي، في السر يا أميرة..

. أميرة!، يا أخي أنت هديت أميرة، أنت موت كل حاجة جوايا، كل حلم جوايا؛ المشكلة أن كل أحلامي متعلقة بك، أحلامي متوقفة على شخص واحد عدم وجوده يعني عدم تحقيق أحلامي، بس كفاية أحلام بقى وخليني أتعايش مع الكابوس ده، أنا بكرهك يا ماهر، عارف أنا مش مهم عندي بتشرب مخدرات أو تاجر مخدرات أو متجوز تلاتة وأنا الرابعة، أنا كل اللي واجعني إنك عمرك ما صارحتني وجاي النهاردة تصارحني بكل حاجة، أنا بكرهك وبكره كدبي حتى؛ أنا عمري ما كنت متخيلة حد يشاركني فيك وكنت بقول هيتجوزني وممكن يخون لما يزهق، بس الواضح أنك زهقت حتى قبل ما نتجوز، أنا بكرهك أبعد عني بقى..

ثم غادرت ولم يكن في نيتي أية نية إلى العودة إليه، ما بداخلي سيبقى بداخلي وسأحتضر يومًا وهو بداخلي، لكن يكفي إهانات لكرامتي، كنتُ أقول أن الحب ليس به كرامة، ولكن الحب يجب أن يكون به كرامة؛ يجب أن يعرف المرء من يُحبه أن حُبه إليه له حدود وسينتهي يومًا إذا لم يلتزم بحدود الحب، ولكنني لم أفعل ذلك: كنتُ مجرد قطعة من القماش في أيدي خياط يُفصلها كما يشاء، لم أضع حدودًا وكنتُ مُسرفة في حُبي إليه حتى أفلست، تبًا للحب الذي يفعل ذلك في المرء، تبًا للقلب الذي يسمح باختراق الحب له، الحُب أصبح لي من الآن جريمة يجب عقاب كل من شارك فيها؛ لذلك يجب عقاب قلبي وسأفعل.

ظل يوسف مع ماهر في الغرفة، ينظر إليه نظرة لوم مثلما نظر إليه الجميع، حتى شعر ماهر بأنه ليس مرغوبًا به؛ فغادر المنزل أيضًا وبقى يوسف مع أفكاره التي تُلاحقه ما هو السر الذي تُخفيه أمل عنه..

لا أعلم ما هي الجريمة التي ارتكبتها في حق الحُب؛ لأنال منه ذلك العقاب الوخيم، الرحمة بقلبي أيها الحب لقد قلتُ منذ قليل أنك جريمة ولكنك أنت من تعاملني على أنني أحدثت جريمة في حقك، صدقني لم أفعل شيئا سوى أنني أحببت بكل صدقٍ، أهذا جزائي؟، أتُجازيني بملء قلبي بالألم، لم أعد أحتمل تلك الجرعات من الألم، أناشدك بأن تنهي علاقتك بي أيها الحُب، أُريد أن أنسى لأول مرة أُريد ذلك: النسيان أمر لازم الآن حتمًا، يجب أن أنهض من قاع اليأس وأن أبحث عن الحب في شخصٍ آخر، لا لا لن أبحث ولكن فقط أخرجه من قلبي؛ أنه يحتل كل جزء في قلبي، كل رقعة هو يحتلها وقلبي من ساعده، لا أعلم كيف أشتكي للحُب ولكن يجب الشكوى؛ لا أُريد أن أشكو إلى الله فيرد قسطًا من الوجع إليه، لا لن أشكوك إلى الله يا ماهر، سأشكو للطرق التي سلكناها سويا، للبحر الذي نظرنا إليه

سويا، للقمر الذي شبهتني به، للفُستان الأزرق الذي تُحبه؛ بل للون الأزرق نفسه، لكنني لن أشكو إلى الله، فلا أُريد أن يلحق بك أي ضرر، فقط أبتعد عن قلبي وأنا أُسامحك، أبتعد يا ماهر وأعلن نهاية احتلالك لقلبي..

ذهبتُ إلى الفُندق ودخلت الغُرفة فلم أجد أمل قد عادت، رغم أنها غادرت منزل يوسف قبل مُغادرتي، ولكن هذا ما أردته تمامًا؛ أردت ألا أراها بعد ذلك الكم الهائل من الصدمات التي تلقيتها، فقط أردت العودة إلى القاهرة لكي أكون وحيدة ومُنعزلة عن الجميع، مُنعزلة عن أكاذيب أقرب الناس إليّ، أما العُزلة لا تكذب أبدًا، أنها تُخبرك بالحقيقة على أكمل وجه؛ تُخبرك بكونك وحيدًا كقطرة ماء في بُحيرة جفت، وحيدًا كآخر ديناصور في السُلالة حيث انقرض الجميع ولم يبق سواك من سُلالتك، وحيدًا كما التلفاز القديم الذي استغنى عنه أهل المنزل ووضعوه في رُكن الخُردوات، وحيدًا كأخر خصلة في شعر مريض بالسرطان، تُخبرك بأنك وحيدًا وخائف أيضًا كعمود إنارة لأحد المقابر، تُخبرك العُزلة أنك كُنت كما القنطرة؛ عبر من خلالك آلاف الأشخاص إلى البر، ثم هدموك بحجة إعادة تشييدك ونسوا أمرك، تُخبرك بأنك يجب أن تعتني بنفسك فقط كشجرة الصبار تمامًا، تُخبرك بأن الحُب في تلك الحُقبة الزمنية أصبح لعبة في يد كل صغير وكبير، ولا أقصد هُنا صغير السن؛ فصغير السن قد يبلغ حُبه لأحدٍ أكثر من حُب أبيه لأُمه، أقصد صغير القلب؛ الذي يظن بأن حُبه فقط كافٍ لإسعاد الآخر وأنه قد فعل مُعجزة إذا قدم وردة لحبيبته، يظن بأن فرائض الحُب إذا فعلها فهو قد قدم كل ما لديه، الأمر ليس كذلك؛ أنت فُرض عليك الاهتمام، الكلام الطيب، التضحية من أجل من أحببت؛ كل ذلك وأكثر من ذلك ليست سوى فرائض الحُب، المُعجزة حقًا عندما تتقدم لطلب الزواج من حبيبتك؛ فأنت بذلك قد

هيأت حياتك كلها من أجلها وذلك وسام ستظل تفتخر به دومًا، فإذا كانت حزينة قُل لها فقط "لقد تزوجتك وأكدت صدق حُبي إليكِ، كل دقيقة من حياتي أصبحت ملكًا لكِ، وتلك تضحية ليست بالسهلة، فأستغلي كل دقيقة من زواجي بكِ فعندما يشيب شعرنا ونتكئ على بعضنا البعض؛ سنندم على كل دقيقة ضاعت لم نكن فيها سعداء معًا".

أخذتكم في أمر فرائض الحُب التي لا تنتهي وتركت أمر العُزلة ولكن لنعود إلى العُزلة؛ لقد اخترت أن أنعزل وجهزت حقيبتي وذهبت إلى محطة مصر أنتظر أول قطار سيتحرك نحو القاهرة؛ كان أول قطار في الساعة الثالثة والنصف فجرًا وكانت الساعة الثالثة، قطعت تذكرة وركبت القطار، ظللت أفكر في مجلس الاعتراف الذي اعترف فيه الجميع بأكاذيبهم، ولم يكن في المجلس سوى اثنان من الذين لم يحملوا أكاذيب بداخلهم؛ أنا وإبراهيم فقط، ولكنني ما زلت أُشم رائحة اعتراف قادم في الطريق ولن يكون كصدمة أي اعتراف سابق؛ أشعر بأنه سيكون كالضربة القاضية في المُلاكمة، نعم شعرت به بالذات من ناحية أمل، هل الأمر له علاقة بتركها ليوسف؟، أم الاعتراف يخص ماهر وزوجته تلك!، على كل حال سينكشف كل شيء قريبًا أنا مُتأكدة من ذلك..

كانت هذه الفترة هي من أصعب فترات حياتي؛ فبعد عودتي إلى القاهرة أخذت قرار بعدم الذهاب إلى الجامعة، لم أكترث للأبحاث ولا المُحاضرات ولا المشروع المُكلفة به، كان مستقبلي الدراسي يتجه نحو الفشل، اعتكفت في الشقة؛ حيثُ النوم بغزارة، أرق شديد، لا أتحدث مع أُمي لليالٍ، لا أرد على مازن وأمل ويوسف وماهر الذي كنت أنتظره يُهاتفني لم أرد على مكالماته العديدة، كنتُ مُنعزلة عن الجميع انعزالا تاما، استمر هذا الأمر لمدة ثلاثة أسابيع؛ حتى جاءت مُكالمة من أبي:

. نعم يا بابا.

قلتُ ذلك بمنتهى العفوية، قال بصوتٍ رقيق أعرفه حينما يكون هناك أمر جاد يُريدني فيه:

. عاملة أيه يا حبيبتي؟

. أنا.،، أنا كويسة يا بابا.

فأردف قائلًا بنفس رقة صوته:

. وعروستنا عاملة أيه في دراستها؟

فدُهشت من تلك الكلمة لكنني لم أكترث لها في البداية، ثم قلتُ أيضًا بنفس عفويتي:

. دراسة...... الحمد لله.

ثم صمت ولكنني لم أستطيع السيطرة على فضولي فقلتُ:

. بس ليه كلمة "عروستنا" دي!

فضحك وقال:

. عشان خلاص تقريبًا قربت أفرح بيكي أنا وأمك وكلنا هنفرح بيكي.

فقلتُ وأنا أنهض من سريري بنبرة صوت مُختلفة، لا أعلم هل كانت حزينة أم سعيدة أم فضولية أم ماذا:

. بجد!، ومين العريس!

. هتعرفي لما تيجي بعد بكرة بإذن الله، بس هو شاب كويس أوي ومن إسكندرية هنا.

ظننتُ حينها كل الظن أنه ماهر، ولكن دفعت ظني بعيدًا وقلتُ:

. بس أنا مش عاوزة أجي..

فقال بعفوية اقتبسها مني:

. لازم تيجي يا أميرة!، أنا أديتهم ميعاد خلاص، هتكسري كلمة أبوكي ولا أيه!

فكرت قليلًا، ثم قررت الذهاب لمعرفة من هو؟، ولكن لم أقرر قط هل سأقبل الزواج أم لا حتى إذا كان ماهر نفسه!، ثم قلتُ وأنا أتنهد:

. حاضر يا بابا بعد بكرة الصبح هكون عندك، سلام..

. ماشي يا عروستنا، سلام.

ظللت أُفكر في ماهر؛ لم يدفعني ظني لغيره، ولكن لماذا عقلي رافضًا أمر زواجي من ماهر، هل لأنه مُتزوج؟، ولكن الشرع قد حلل لهُ أربعة، ولكن الشرع لم يُحلل له التجارة في المُخدرات، هل ما زلتُ أُحبه؟، أنا اصطنع عدم اكتراثي لأمر زواجي منه ولكن قلبي سعيد؛ أشعر به وبدقاته السريعة تلك وكأنه يبتسم أخيرًا، لا يجب علي سبق الأحداث فلنرى ماذا سيحدث... ظل هذا الصراع بداخلي ليومين حتى عُدت إلى الإسكندرية وقابلني أبي وأمي وأخوتي بوجهٍ بشوش وقُبلات، ظللت في غُرفتي لحين مجيء موعد العريس وأنا أُفكر في ماذا سأرتدي حينما يُناديني أبي بأن أخرج إليهم؛ قررتُ ارتداء فُستانا أزرق كالعادة ولكنه ضيق نوعًا ما عكس الفساتين الواسعة الأخرى، وجاء موعد العريس كنتُ بالداخل في الغُرفة ورميت أُذني ناحية الباب لأستمع لأي شيء؛ لكن لا جدوى... وحينما ناداني أبي بالخروج؛ ذهبت إلى المرآة وأنا أنظر إليها وأبتسم ابتسامة فقدتها، وخرجت إلى الصالون وحينها كانت المُفاجأة..؛ فقال أبي:

. تعالي سلمي على عريسك؛ إبراهيم!!!!

***

الفصل التاسع عشر

تحولت ابتسامتي العريضة إلى ابتسامة حزينة، تحول لمعان عيناي إلى انطفاء، تحولت ضربات قلبي السريعة إلى خفق قلبي وشعرت كأنه توقف، وتوقفت أنا أيضًا حينما قال أبي ذلك ولم أخطو خطوة أخرى؛ ولكن قال والد إبراهيم لأبي:

. شكل العروسة مكسوفة من العريس

ثم أضاف وهو يُحول نظره إليّ

. متتكسفيش يا بنتي ده حتى ابن خالتك..

فنظر أبي لي هو الآخر نظرة عفوية؛ فتقدمت وسلمت عليه وعلى أبيه وأمه ويوسف الذي جاء معهم... ثم جلست على الكرسي بجانب أُمي أُتابع ماذا يقولون، قال والده:

. بص بقى يا وليد "وليد هو اسم أبي" إحنا طالبين إيد بنتك أميرة لأبننا إبراهيم، وإحنا مستعدين لأي حاجة تطلبوها؛ البنت ما شاء الله مش خسارة فيها أي حاجة، أخلاق عالية، ومتفوقة في دراستها، وجمالها ما شاء الله يعني عليها وابننا مقتنع بيها جدًا ومكلمني عليها من أول يوم شافها في المستشفى، أيه رأيك يا حاج وليد؟

فقال أبي وهو يبتسم:

. والله إبراهيم كمان عريس ميترفضش أبدًا؛ أدب وأخلاق الكل بيتحاكوا بيه، وشه بشوش كدا وشخصيته تتحب وأنا موافق طبعًا..

ثم قال أبي:

. وأيه رأي أم العروسة؟

فقالت وهي تبتسم أيضًا:

. وهو في رأي بعد رأيك يا حاج!

ثم وجه والده الحديث لي:

. وأيه بقى رأي العروسة الجميلة، رأيها ده أهم رأي في الموضوع.

كنتُ أنظر إلى الأرض؛ ليس خجلًا بل إحباط شديد...، كان يوسف ينظر لي بكل حزن علي وعلى قلبي، كان يعلم بأنني حتمًا سأرفض الزواج؛ فقلبي ما زال مُتعلقا بماهر ولن أقبل الزواج من غيره، كان ينتظر رفضي، لكنها كانت أول مرة لم يفهمني يوسف فيها، رفعت رأسي وقلتُ:

. موافقة..

تعالت صيحات الفرحة وانفرجت أسارير إبراهيم، ونظر إلى يوسف في غرابة شديدة وعدم فهم فابتسمت إليه..

قال إبراهيم:

. أنا أسف يا عمي بس ممكن الجواز يكون بسرعة؛ تكون فترة الخطوبة شهرين فقط على ما تخلص امتحانات نص السنة بتاعتها وبعدين نتجوز في أجازة نص السنة؟

فقال أبي:

. بس مينفعش يابني ده هيأثر على دراستها!

فقلتُ أنا بسرعة:

. لأ يا بابا!، مش هيأثر على حاجة أوعدك..

فقال أبي وهو يبتسم:

. طب نقرأ الفاتحة بقى.

قرأنا الفاتحة وإبراهيم ينظر لي وابتسم وبادلته الابتسامة، ويوسف ما زال لا يُصدق ماذا قلت، ثم انتهى اليوم وانتهى معه حُلم راودني دومًا؛ انتهى حُلم زواجي من ماهر، كنتُ أحلم بأن يكون هو مكان إبراهيم وهو الذي يبتسم لي تلك الابتسامة، حلمت بأن نقرأ الفاتحة سويا وأن يضع خاتم الخطوبة في إصبعي، ثم يضع خاتم الزواج في إصبعي ويُقبلني أمام الجميع، كنتُ أحلم بليلة زواجنا وما بعد الزواج؛ أن نتشارك كل شيء سويا فرح كان أم حزن، نتشارك الموسيقى والأفلام ومباريات كرة القدم، كل ذلك ذهب هباءً ولا أعلم كيف قبلت انتهاء حُلمي!

بعد فترة من خطوبتي كنا جالسين أنا وإبراهيم في منزلنا، اقترب مني وأمسك بيدي وقال:

. صدقيني أنا مش أناني... أنا خدت القرار ده علشانك قبل حُبي ليكي اللي اتزرع جوايا في أول مرة شوفتك فيها، أنتي صعبتي عليا لما شوفتهم بيرموا أكاذيبهم عليكي وأنتي وحدك اللي أتأذيتي منهم؛ فحبيت أخلصك من مسلسل الكدب ده وأخلص قلبك من حبه للكائن ده، أنا بحبك يا أميرتي وبإذن الله أنا هخرجه من قلبك!

ابتسمت إليه ولم أنطق بكلمة واحدة كنت أشعر بظلمي له وأنني لا أستحق أن أكون مع هذا الملاك؛ لأن قلبي مُتعلق بشيطانٍ أبله... ولكن هل سيظل قلبي مُتعلق به حتى بعد زواجي؟، هل علم بأمر خطوبتي؟، لا أعلم شيئا سوى أن عقلي ينتقم منه ولكن قلبي ما زال مُتشبث به، وهذا أيضًا فرض من فرائض الحُب؛ صراع العقل والقلب فالأول يظن بأنه يفعل الصواب والثاني يظن بأن الصواب يكمن في استمرار الحُب، مهما تكن عيوبه ومعاصيه وذنوبه وتقلباته فالقلب ينجذب إلى كل ما يفعله رغم أنه يتألم؛ ولكنه يختار مرارًا وتكرارًا

الحُب على انتهاء الألم، أو أنه لا يختار ولكن فُرض عليه ذلك ولا يستطيع الشعور بغير ذلك، يظل مُنغمسًا في الحُب ولا يرى غير من يُحب، الأمر تمامًا يُشبه ضرير فُرض عليه حُب الظلام لأنه الصديق الدائم على أمل تحول الظلام إلى نورٍ يومًا ما..

مرت الأيام بسرعة حتى اقترب موعد اختبارات نصف العام وكنتُ أخذت قرارا بالبقاء في الإسكندرية، أقنعت أبي بصعوبة بمساعدة إبراهيم أن أبقى وأُذاكر للاختبار هنا في منزلي أفضل من ضجة القاهرة، وفي ليلة صامتة كانت الساعة الثالثة قبل الفجر، كنتُ أُذاكر في غرفتي وفجأة قطع الصمت ضربات عديدة على نافذتي، وصوت لا أسمعه ولكنني أعرفه جيدًا وقلبي يعرفه، خفت أولًا أن أفتح النافذة ولكنني حين اقتربت منها؛ كان الصوت الذي بالخارج هو صوت ماهر، فتحت النافذة فورًا فكان يمسك في يده زجاجة من الخمر وبيده الأخرى سيجارة ويبدو بأنه سكران تمامًا، اقترب من النافذة أكثر وقال بصوت محشرج من الخمر ورائحة أنفاسه قد كست أنفي:

. أنا مش جاي أقولك حاجة غير، غير، غير أيه حتى نسيت كنت جايلك ليه يا حبيبتي

أخذ يضرب رأسه بيده المُمسكة بالسيجارة، ثم قال:

. آه أفتكرت؛ جاي اقولك مبروك، مبروك يا آنسة أميرة ولا آنسة أيه بقى خلاص كلها شهر وهتكوني مدام حرم الأستاذ والشيخ إبراهيم، مبروك..

ثم لأول مرة يبكي أمامي، يبكي ويمسح دموعه بسرعة ويطيح يمينًا ويسارًا، حتى انتهى من زجاجة الخمر فكسرها في الحائط وقال:

. سكوتك بيكسر في قلبي زي ما كسرت الإزازة دلوقتي.

التزمت صمتي وأنا أنظر إليه بكل شفقة، كان قلبي يبكي ويقول "افعلي إليه شيئًا، إن قلبه يحتضر" ولكن ماذا عن احتضارك أنت أيها القلب؛ لماذا حينما كنتُ تحتضر لم يفعل هو شيئًا لك، هكذا رد عليه عقلي، ثم قال ماهر وهو ما زال يُطيح بنفسه يمينًا ويسارًا:

. كما تدين تُدان صح؟، كسرتك فكسرتيني، فقطعة من الإزازة المكسورة دخلت في رجله، أيوا متستغربيش أنا حاسس بيها، لسة ساكتة؟، أنا بح...

وصلت نيران السيجارة إلى عُقبها فأحرقت إصبعه، صرخ فقطعت صمتي بقولي:

. حرقت قلبي بالسنين؛ فحرقتك السيجارة..

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم أخرج من جيبه علبة سجائره وأنتشل سيجارة منها، أعطاها لي وقال:

. أمسكيها كدة.

أمسكت بها وأنا لا أفهم ماذا يفعل، ثم أخرج القداحة من جيبه وأشعل السيجارة وهي في يدي، ثم أمسك بيدي وفتح قميصه وتوجه بيدي ناحية صدره، حتى لمست نيران السيجارة صدره وكانت تغلي صدره وأُحاول نزع قبضة يده من يدي؛ ولكنه كان متمسكًا بها جيدًا وهو يبتسم والسيجارة تحرق في صدره ناحية قلبه، ثم قال:

. للأسف مش معايا سجاير تكفي لسنين عشان تحرقيني بيها، بس احرقي قلبي بالعلبة دي وكل يوم هجيبلك علبة تحرقيني بيها، أحرقي كويس يا أميرة، أحرقي صدقيني أنا مبسوط إني بتحرق من أيدك، أتمنى أموت على أيدك وأنتي بتحرقيني..

ثم نزعت يدي من قبضته أخيرًا ورميت بالسيجارة وقلتُ:

. أنت مجنون!

فرد وهو يبكي ويبتعد عن النافذة:

. مجنون!، أنا لو مجنون فمجنون بيكي، أنا محتاج أروح لمصحة وأصرخ وأقول عالجوني من إدمانها، أنا بدمنك يا أميرة، أنا بحبك أوي أفهمي..

فقلتُ برزانة شديدة:

. ماهر!، أنا مخطوبة وجوازي كمان شهر..

فبدى على وجهه الغضب وثار قائلًا:

. محدش هيتجوزك غيري، أنتي ليا وبس!، أنتي مراتي أصلًا في خيالي!

. وأشمعنا أنت مكنتش ليا وبس؟، أنت قولت بنفسك أهو أن الكلام ده في خيالك، إنما في الحقيقة أنا لسه هتجوز كمان شهر وهكون مرات شخص محترم... أنت كمان جوزي في خيالي، بس يفيد بأيه الخيال لو محولناش الخيال ده لواقع؟. خلاص يا ماهر كل حاجة انتهت، إنسى أمري كالعادة وأهرب وأنا مش هنساك أبدًا..

أخذ يبتعد أكثر فأكثر، ثم ناديت عليه وقلتُ:

. ماهر؟

أدار وجهه لي ثم قلتُ:

. لسه مش هتعرفني مين مراتك؟

فابتسم وقال:

. هتعرفي قريب لما تجيلك لحد عندك يا حبيبتي..

وابتعد وهو يشرب السيجارة التي كانت تحرق في صدره وكادت دموعه تُطفئها..

أدعيت ثباتي أمامه بينما كان قلبي يهتز، زلزال قد أصابه حينما رأيت ماهر وزاد مقياس الزلزال حينما رأيته بتلك الحالة المزرية، وصل إلى أقصى مقياس حينما أمسك بي وجعلني أزرع حريق السيجارة في صدره؛ حتى دمر الزلزال قلبي... كان مشهدًا لا يُنسى أو أن أي شيء له علاقة به لا يُنسى أبدًا ولا تمحوه الأيام، ولكنني رأيت ما لم أره طوال حياتي؛ الغيرة التي كانت في عينيه، يا إلهي لقد كان غيورًا حقًا؟، وكيف لا يغار وبعد شهر ستكون محبوبته بين أضلع رجل آخر، قرأت في عينيه شيئا يقول "أطفئي نيران الغيرة بعناق، أعلم بأنني تركتك تحترقين ولم أكترث لأمرك، لكنني أبله ولو عاد بي الزمن لقالت قُبلة تطبع على شفتيكِ للنيران "كوني بردًا وسلامًا". ليست قُبلتي بعظمة الإله، ولكنها تكفي لإطفاء ذلك الحريق"..

وقعت في غرامه حتى وهو ثمل، أنا أيضًا أكون ثملة حينما أنظر إلى عينيه وأُدقق في تفاصيله، فالفرق بيني وبينه أن ثمالته محرمة وثمالتي حلال لا إثم فيها، ما زلت أتغزل بك رغم كل ما مر بي ورغم خطوبتي ما زلت أهواه..

مرت الأيام بنفس السُرعة ولم أره من بعد هذا اليوم الذي كان ثملا فيه، جاءت فترة اختبارات نصف العام وفي أول يوم من الاختبارات أخبرت مازن بكل شيء؛ أنني علمت غرضه هو وأمل مني وأخبرتهم بأن يبتعدوا عني ولكنني دعوتهم إلى زواجي، ثم انتهيت من فترة الاختبارات الصعبة وبقى على زواجي أربع ليالٍ، عندما عُدت إلى الإسكندرية في أخر يوم من اختباراتي وبعد ساعة من الحديث مع إبراهيم على الهاتف؛ نمت ولم أفق من نومي إلا في اليوم التالي وكانت أختي الصغيرة هي التي أفاقتني وهي تقول:

. أصحي واحدة صاحبتك مستنياكي بره.

كررت تلك الجملة مرتين وفي الثالثة فزعت من نومي وأنا أتساءل من هي؟، ارتديت ملابسي وخرجت فوجدت أمل هي التي بالخارج في الصالة!، كانت أُمي تُضيفها بكل سرورٍ وعندما دخلت أمي لتُحضر العصير، قالت أمل بصوت خافت:

. ممكن ندخل الأوضة بتاعتك، عاوزاكي..

إنني أشم رائحة الاعتراف التي تحدثت عنه سابقًا، نعم تحقق ذلك حينما دخلنا الغُرفة وقالت:

. أنا جيتلك من القاهرة لهنا بعد تفكير طويل عشان أقولك على اعترافين مُهمين جدًا والتاني أهم من الأول..

فقلتُ وقلبي ينبض بسرعة:

. أيه هما؟!

نظرت إلى الأرض وقالت:

. الأول: أنا عندي سرطان... اللعنة اللي أصابت العيلة بتاعتنا وبتاخدنا واحد واحد!

خفق قلبي ولكنني كنت أتطوق لمعرفة الاعتراف الثاني، فقلتُ وأنا أمسك بصدغها وأُوجه عينيها إلى عيناي وقلتُ:

. والتاني!؟

قالت، بل بترت قلبي بهذا القول بصوت محشرج:

. أنا زوجة ماهر... عُرفي!!!!

***

الفصل العشرون

بدأت أمل في الحديث وقص أمر زواجها من ماهر ولم أنطق بكلمة وتركتها تقول ما شاءت..

. منذُ عام تقريبًا كنتُ هُنا من أجل أن ألتقي بيوسف، قضينا اليوم سويا ولم يكن معي مازن، كنتُ في ذاك اليوم أشعر بالغثيان وكانت رأسي ستنفجر من الضجيج حتى أن يوسف كان يشعر بشيءٍ غريب تجاهي، وبعد أن انتهينا من يومنا أوصلني يوسف أمام محطة القطار وكانت الساعة الواحدة فجرًا، قبلني ثم رحل، ذهبت إلى بقالة لأشتري بعض الأشياء وكان شاب يشتري أيضًا سجائر ومناديل، كان ذلك الشاب هو ماهر، ثم سقطت وفقدت وعيي... أدخلني ماهر إلى سيارته لكي يذهب بي إلى إحدى المستشفيات ولكنني سرعان ما عدت إلى وعيي وكان هو يقود سيارته في الأمام وأنا على الأريكة الخلفية، نظرت إليه في المرآة وقلتُ بفزعٍ شديدٍ:

. أنت رايح بيا على فين!

. أنتي فوقتي!، الحمد لله خوفت عليكي أوي، أنا رايح بيكي على المستشفى..

. لأ مستشفى أيه أنا تمام، كنت طول اليوم مصدعة وحاسة بدوخان بس أنا تمام خلاص أرجع بيا للمحطة..

فقال وهو يبتسم:

. لأ محطة أيه أنا لا يمكن أسيبك كدا في الحالة دي، لازم ترتاحي وتيجي معايا البيت بتاعي تنامي عندي الليلة دي والصبح لو لقيتك كويسة هسيبك تروحي، بس أنتي منين أصلًا؟

. من القاهرة، مدينة نصر..

حاولت مرارًا وتكرارًا أن يعود بي إلى محطة القطار ولكنه صمم أن أبيت عنده هذه الليلة، كنتُ خائفة وارتعش وزاد ارتعاشي حينما وقف أمام المنزل وحملني ودخل بي وهو ينظر إلى عيناي بشدة، قضينا تلك الليلة نتحدث طويلًا وأقص عليه مُعاناتي وهو قص على حُبه لكِ بل عشقه ولكن المخدرات كانت حاجزا بينه وبينك، ثم غضب وجاء بزجاجة من النبيذ وأشعل سيجارة غريبة كانت تبدو بأنها سيجارة حشيش، حاولت إقناعه بألا يشرب تلك الليلة ولكنه قال لا تقلقِ سأكون بخير وأدخلني إلى غرفته لأنام ثم خرج يُكمل شربه، وكان قد اتصل يوسف مرات كثيرة ولكنني لم أرد عليه وأغلقت هاتفي؛ كنتُ لا أريد أن أكذب عليه ولو أخبرته ما يحدث لقطع علاقته بي نهائيًا، ثم وأنا أستعد إلى الغوص في أعماق النوم، ضرب ماهر الباب بقدمه وهو ممسكًا بالزجاجة، وضع الزجاجة على لوح من الخشب، اقترب مني وأنا كنتُ قد خلعت ملابسي وسأنام بملابسي الداخلية فقط، اقترب مني أكثر وأنا أرتعش وانكمش ولا أعرف ماذا أفعل، غمضت عيناي حينما أدركت أن لابُد من حدوث ذلك الشيء المفزع مع ذلك السكير الذي لا مفر منه، يدور بداخلك الآن سؤال وهو "لماذا لم أصرخ؟"، وماذا لو صرخت ودخلوا الأناس علينا، أنا سأكون المذنبة والساقطة التي جاءت مع شاب في ذلك الوقت ومن ثمَّ تصرخ مدعية أنه يغتصبها!، بعض غمضة العين جاءت مُلامسته لجسدي واستسلمت تمامًا وحقيقة كان جسدي يستمتع وضميري يتألم...، عندما انتهى الأمر وانتهى أمر الفتاة العذراء، قال وهو يُكمل شرب زجاجته:

. متخافيش هتجوزك عرفي..

كنتُ أبكي ولكنه عانقني وقال:

. مرتبطة بحد؟

فقلتُ وأنا أهبط بدموعي على جسده:

. أيوة..

. مين؟

. شاب هنا من إسكندرية، اسمه يوسف وليد ومن العجمي!

ففزع من مجلسه وهو يصرخ ويقول:

. أيه!، أنتي بتقولي أيه!، أنتي مجنونة!

تعجبت مما يفعله ولكنه سرعان ما قال:

. يوسف وليد ده أعز صديق ليا!!!، وإحنا دلوقتي في العجمي وبينا وبينه كام شارع!!!

تذكرت أنه أخبرني باسمه "ماهر" وجمعت في ذاكرتي حديث يوسف معي عنه وأنه يريد أن يُنسيكِ حُب ماهر وقلتُ وأنا أضع يدي على فمي:

. هو أنت ماهر واللي كنت عمال تحكي عليها دي أميرة حبيبتك!

حينها أدركنا كل شيء، وأخذ يكسر الزجاجة والمرآة وكل زجاج يقابله، كنا في حالة ذهول وكأننا في إحدى الأفلام الهندية ولا نصدق ما يحدث، ثم قال لي:

. خليكي هنا هخرج أجيب حاجة وآجي..

. هتجيب ااا..

خرج بسرعة ولم أكمل سؤالي وكنت خائفة وكأنني في كابوس لا ينتهي، وبعد نصف ساعة عاد وفي يده ورقة؛ كانت ورقة الزواج العُرفي، أنجزنا أمر الورقة وقال وهو يبكي مُرتميًا في حُضني:

. أنا أسف... أسف جدًا، أنتي من النهاردة مراتي بس مش هلمسك تاني خالص، أسف ليكي ولصديق عمري، وهو بيحذرني من المخدرات قلبه كان حاسس بكارثة، أظن الكارثة حصلت، كان صح لما قالي أنه يضمن منين أميرة تخرج معايا سليمة وترجع فاقدة عذريتها..

ثم قال وهو يقف ويضرب الحائط بيده:

. بس مجتش في أميرة... جت في حبيبته، أنا أسف..

ثم جثا على ركبتيه أمامي يعتذر ويبكي بكل حسرة وأنا لم تُفارق الدموع جبيني، ثم تقدمت إليه وعانقته وأخبرته بأن كل شيء سيكون على ما يرام ونمنا على الأرض... في اليوم التالي سافرت إلى القاهرة وأخبرته بأنني سوف أعود إليه كل فترة وأبيت معه ولن أتركه يتعذب وحده، كنتُ أُسافر إليه كثيرًا ووجدت فيه الصديق والأب الذي حُرمت من حنانه... كان يُحدثني دومًا عنكِ، ماهر يُحبك أكثر من أي قصة حب تخطر على بالك يا أميرة، ولكن في يوم من الأيام شعرت بغثيان وحدث ما توقعته أنني حامل في طفل... أخبرني بأنها ستكون كارثة إذا لم أُسقطه وبالفعل أسقطه يا أميرة.. أسقط جزءًا مني... وبالفعل لم يلمسني ماهر ولم يُفكر حتى ولو كان سكيرًا أن يقترب مني، كُنا نكتفي بالعناق الأخوي فقط، أخبرني في يومٍ ما أنه أصبح يبيع المخدرات ويُتاجر فيها وحاولت كثيرًا منعه ولكنه استمر في هذا الأمر، أنا أسفة يا أميرة أسفة وأعلم أن أسفي لن يفعل شيئا البتة، لكن فكري في أمر زواجك، ماهر يعشقك وهو من بعثني إليكِ لأخبرك بالحقيقة، أما عن أمر مرضي فأنا قريبًا سأذهب إلى تلك المشفى التي كانت بها أمي وأنضم إلى نفس الغُرفة... ولكن وصيتي يا أميرة أن تتزوجي من ماهر أرجوكي..

انتهت أمل من حديثها وهي تبكي ولكنني كنتُ مُشمئزة منها كثيرًا ولا أُصدق ما حدث، كابوسًا لم أُصادفه قبلا في حياتي، ماهر وأمل!!، قلتُ لها:

. لولا السرطان اللي عندك، لولا أن قلبي مُتعاطف مع مرضك؛ كنت طردتك من البيت دلوقتي... ربنا يسامحك ويسامحه على اللي بيعمله فيا، هي دي نتيجة حبي له؟، أتجوزه! أيه لازمة السياج لما تكون حديقة الورد أصلًا دبلت!، أنا دبلت خلاص ومش عاوزاه، ربنا يسامحه ويسامحك... أنا هتجوز إبراهيم ومش هطاوع قلبي تاني، الحب فرض عليا حاجات كتير أوي بس خلاص كفاية مش هيفرض عليا كمان اتجوز واحد عذبني وكمان متجوز ومن مين!، من أعز صديقة عرفتها في حياتي..

قامت أمل من مجلسها وهي تقول:

. اعتبري نفسك طردتيني، أنا همشي بس أبوس أيدك فكري مليون مرة، هو المرادي أقسملي على المصحف أنه مستعد يعمل أي حاجة عشانك أنتي وبس، أي حاجة يا أميرة، متغلطيش غلطة تندمي عليها طول عمرك... وبالمناسبة أنا قبل ما أجيلك كنت عند يوسف وحكيت له كل حاجة والحقيقة كلها، وطردني بردو وقالي مش عاوز أعرفك تاني ودعا أن المرض ياكل في جسمي كله وقال أنه مش عاوز يعرف ماهر تاني وأنه لو شافه هيقتله... أرجوكي ابقي روحي هديه وقوليله إني بعشقه بس الظروف والصدف رفضت نكون مع بعض..

ثم فتحت باب الغرفة، ناديت عليها وقلتُ:

. أمل!

. نعم؟

. متظنيش إني هتجوزه، بس عاوزة أسألك إزاي جالك قلب تقوليلي اتجوزه وانتوا على ذمة بعض!

أخرجت من جيبها بعض الأوراق المُمزقة وألقت بها في الأرض وقالت:

. قطعنا الورقة ورمى عليا الطلاق..

ثم ذهبت هي وبقيت أنا مع كم هائل من البُكاء والمُعاناة، يا قلبي المسكين ماذا فعلوا بك؟، أو ماذا فعلت أنت بي؟، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك؛ هل الحياة ضيقة للغاية للحد الذي يجعل من أحببته يفعل فعلته تلك مع إنسانة من المفترض أنها لاحقًا أصبحت صديقتي المُفضلة!، ماذا تُخبئ لي الحياة في جعبتها أكثر من تلك المُعاناة؟، وماذا إذا ذهبت الآن لإحدى الكباري وألقيت بنفسي في المياه؟، بالطبع سوف أكون كافرة ولكن يا الله أنا أحتاجك الآن، يا الله أهبط بذرة من رحمتك علي فقد يئست من قسوة العالم، سأتزوج من إبراهيم الابن البار وعبدك القريب منك ولكن قلبي يحمل كل الحب لعبدك البعيد عنك، قربه إليك يا الله أترجاك وأصلح حاله، سأدعو إليه دومًا..

مرت الليالي الثلاث بما فيهم الليلة المعروفة بالحنة وكنتُ حزينة وأصطنع ابتسامتي الباهتة، وجاءت الليلة الأخيرة، ليلة الزواج التي تتمناها كل فتاة ولكنني لم أتمنها سوى معه، نعم أنا وافقت على الزواج ووضعت نفسي في تلك المُعاناة ولكن كان يجب فعل ذلك للحفاظ على المُتبقي من كرامتي، لم أفعل ذلك لأراه نادمًا طوال عمره لأنه سوف يظن ذلك؛ لقد فعلت من أجل أن أريح قلبي وأُريح قلبه وينتهي أمر هذا الحب اللعين ويُدفن حيًا... كنتُ لا أكترث لفستان الزواج ولا أي شيء، اختارت أمي كل شيء ولم أختر سوى الصمت؛ طوال اليوم صامتة وفي صالون النساء الذين كانوا يجهزونني فيه،

أنجزوا أمري وكنتُ كالملاك كما قالوا ولكن كنتُ أرى نفسي بشعة، كان الفستان الأبيض يحمله من خلفي أقاربي، ثم ركبت السيارة مع إبراهيم وكانت يداه تُعانق يدي، كان ينظر لي ويبتسم، ثم قال:

. أنتي حلوة أوي!

ابتسمت والتزمت صمتي، ثم وصلنا إلى قاعة الزواج بعد نصف ساعة في الطريق مُحاطين بكثير من السيارات وضجيج أغانيهم وصوت السيارات، زاد الضجيج عندما هبطنا من السيارة وتعالت الأغاني والقُبلات من كل ناحية من النساء ونظرات إبراهيم لي التي كانت تُزعجني، كابوس مُستمر ويجب أن أتقبله بمرارته لأنني اخترته..

وأثناء ما كنا في القاعة وأنا جالسة بجانب إبراهيم على أريكة الزفاف توقفت الموسيقى فجأة، صمت خُيم على القاعة ظننا أن الموسيقى ستعود ولكنها بقت على نفس الحال لمدة طويلة والجميع يتساءلون: ماذا يحدث؟، لماذا توقفت؟، متى ستعود؟، ظلوا يتساءلون حتى جاوبهم صوت ماهر في الميكروفون وهو يقف من مجلسه من إحدى كراسي قاعة الزفاف ويرتدي بذلة حمراء أنيقة للغاية وربطة عنق زرقاء؛ لا يمكن أن يتخلى عن الأزرق أبدًا... وبنطالا أسود وكانت لحيته السوداء تليق مع البنطال وحذاء أسود أيضًا، كان جذابًا للغاية للحد الذي ظن الجميع أنه العريس ليس إبراهيم، قال ماهر:

. طبعًا أنتوا عارفين أنا مين؟، واللي مش عارف أكيد بيسأل أنا مين؟، بس الحقيقة أن حتى اللي عارفني مش عارفين أنا مين غير اسمي وعنواني وعمري

ثم أشار لي وأكمل حديثه:

. إلا الإنسانة دي هي اللي تعرف كل حاجة عني، الإنسان مننا مش بالعنوان أو بالعمر أو بالشكل، اللي يعرفك بجد هو اللي يعرف اللي

جواك مش اللي بتتظاهر بيه براك واللي الكل يعرفه عنك، هي الوحيدة في العالم القذر ده اللي كانت عارفاني، عارفة امتى أنا سعيد وامتى أنا حزين وامتى تايه، عارفة كل تفاصيلي وكل الحاجات اللي بحبها وكل الحاجات اللي بكرهها..

ثم نزلت قطرة من الدموع على بذلته وصمت قليلًا ليمسح باقي دموعه ثم قال:

. وهبت ليا السعادة وكنت أنا مصدر حزنها، وهبت ليا القوى وكنت أنا مصدر ضعفها، وهبت ليا النجاح وكنت أنا مصدر فشلها، وهبت ليا الحياة وكنت أنا مصدر موتها، وهبت ليا الحب، الحب، الحب ألف مرة ووهبت ليها البؤس والحزن والعصيان على حبها، وهبت ليا كل حاجة وأنا بخلت عليها بأقل حاجة..

هذه المرة لم يستطع إزالة دموعه لغزارتها وكذلك أنا أزالت دموعي مساحيق التجميل... ثم قال وهو يصرخ:

. بس أنا بحبها!، أنا بحبها أكتر من حب قيس لليلى، أكتر من حب الكاتب لقلمه، أكتر من حب عازف البيانو اللي بيعزف عليه، أكتر من حب أب لطفلته اللي لسه مولودة، جمعوا كل الحب اللي في قلوبكوا وحطوه في كفة مع حبي ليها وأُقسم أن كفتي هي اللي هتطب..

تقدم مني وكان إبراهيم يحدق فيه بكل غضب وأنا أنظر إليه باكية، ثم أردف قائلًا وهو يجسو على ركبتيه أمامي:

. أنا أسف، سامحيني يا أميرة، سامحيني يا أميرة العالم، أنا نقطتك السودة في الحياة ومصدر همك وحزنك بس أُقسم بالله حبي ليكي قادر يمحي كل ده، حبي ليكي قادر يعوضك عن كل ثانية اتعذبتي فيها بسببي، حبي كبير أوي يا أميرة وأنا أخيرًا عرفت إزاي اترجمه لأفعال، مش مجرد مشاعر وبس، صدقيني أنا بحبك، سامحيني، سامحيني..

ثم نطقت وأنا أبكي والجميع يُتابعون وكأنه مسرح تمثيل وليس زواج:

. عايز أيه يا ماهر؟!

وقف وقال وهو ينظر لي بكل حزنٍ:

. عاوزك يا أميرة، أنا قدام الجميع طالب أيدك للجواز، أنا أسف يا إبراهيم بس هي مش بتاعتك، مش بتحبك، قلبها متعلق بيا، بشيطان هيكون ملاك على إيديها، مش بملاك جاهز، هي بتاعتي من صغرنا يا إبراهيم..

فرد إبراهيم بهدوء بعد غضب:

. أنا مقدرك ومقدر شجاعتك وحبك..، أنا هسيب الرد ليها هي..

فوقف أبي وقال وهو يصرخ:

. الرد ده بتاعي أنا، أنا أبوها وأنا اللي ليا الحق أختار هي هتتجوزك أنت يا إبراهيم، وأنت يا ابني أخرج برا وسيبهم في حالهم!

فصرخت وقلتُ:

. بابا!!، كفاية بقى كفاية أنت أيه!، لأ مش ليك الحق تختار مصيري، كان نفسي أكون رسامة واخترت أني أكون مُهندسة عشان شكلك قدام الناس، كل حاجة كان نفسنا فيها سواء أنا أو أمي أو أخواتي الصغيرين أنت بتختارلنا غيرها، حرام عليك كفاية!، عارف لو كنت حتى مقبلتش الجواز من إبراهيم كنت هتغصبني، شاب عايش في السعودية ومعاه فلوس ومكانته كبيرة وهيعلي من شكلك أكتر قدام الناس، صح أنطق صح ولا لأ!، عرفت إني صح أرحمنا بقى ده ربنا بيرحم..

ثم نظرت إلى ماهر واقتربت منه وقلتُ:

. ماهر، أنا بقبل الزواج منك ومش عاوزة أكتر من شقة نكون فيها أنا وأنت متجمعين لوحدنا نتشارك فيها كل حاجة، مش عاوزة مهر أنت تكفيني، مش عاوزة دهب يزيني كفاية حبك ليا هيزيني، مش عاوزة أي حاجة غيرك يا ماهر!

رميت نفسي بين أحضانه ورحل إبراهيم وهو يبتسم لي، وظهر يوسف وأمل فجأة وهم يصفقان مع بعضهما ويصفق خلفهم جميع الحضور ولم نتوقف عن البكاء؛ من الحزن على الماضي والسعادة على مستقبلنا سويا، ثم أتممنا أمر زواجنا فورًا وأُعلنت زوجة لماهر وأصبحت أخيرًا حرم الأستاذ ماهر!، ثم قلتُ:

. أنا مش عاوزة موسيقى دلوقتي، أنا هروح شقة ماهر نسمع موسيقى هناك لوحدنا، شكرًا ليكوا، ثم أخذت بيديه وركضنا مثل المجانين وركبنا سيارته وذهبنا إلى منزله؛ كان جميلًا للغاية، منزل من أربع غرف منهم غرفة للأطفال، وكان المنزل يتزين باللون الأزرق فقط، أدخلني إلى غُرفة مليئة بالكتب وبها بيانو والكمان وآلات موسيقية عديدة ولوحات رسم، ثم قال:

. هحققلك كل أحلامك..

فقلتُ وأنا أُقبله:

. أنت كل أحلامي يا ماهر وأخيرًا أتحققت!

وبعد أربعة أعوام كُنا قد أتينا بطفلين توأم؛ سمينا الأول زين والثاني مالك، ورُزقنا بطفلة صمم ماهر على تسميتها بأميرة على اسمي رغم اعتراض الجميع، وتزوج أمل ويوسف بعد صراع المرض اللعين لمدة عامين وكان بجانبها دومًا ولم تفقد الأمل لكونها أمل؛ فشفاها الله

وتزوجا ورزقهم الله بطفل سُمي بماهر مثلما أراد يوسف، وانتهى أمر إدمان ماهر للمخدرات وأصبح مُدمنًا منزله وأطفاله وأنا بالطبع، وأبي قد تخلص من كل ما في قلبه من سوء وأصبح شخصًا آخر تمامًا، أما عن مازن فتزوج أيضًا ولكن لا نعلم عنه شيئا.

فرائض الحُب مهما حاولت الفرار منها؛ لن تستطيع الهرب منها، فرائض الحُب مهما أقسمت على عدم فعلها سيلين قلبك وتفعلها حتى إذا كلف الأمر قلبك الحُزن، أختر من أحبه قلبك وأجعله ملاكًا إذا كان شيطانا، ولا تختار ملاكًا لا يُحبه قلبك، اتبع فرائض الحُب فقط!